

مُحَمَّدٌ  
صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ

الْإِنْسَانُ الَّذِي لَمْ تُفْسِدْهُ الْعَظَمَةُ

قِرَاءَةٌ تَأْمِلِيَّةٌ فِي هِنْدَسَةِ الْكَمَالِ الْمُحَمَّدِيِّ

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الْإِنْسَانُ الَّذِي لَمْ تُفْسِدْهُ الْعَظَمَةُ  
قِرَاءَةً تَأْمِلِيَّةً فِي هِنْدَسَةِ الْكَمَالِ  
الْمُحَمَّدِيِّ

رداد السلامي

## البداية

بسم الله الرحمن الرحيم

### (وإنك لعلی خلق عظیم)

الكلام عن رسول الله ﷺ ليس ميدان مبالغة أدبية، ولا ساحة تزويق إنشائي، ولا مجرد تعدادٍ للشمائل والمناقب، مع جلال ذلك كله؛ بل هو اقتراب من أعظم نموذج بشري اصطفاه الله لحمل خاتمة الوحي، حتى صار في شخصه الشريف برهاناً حياً على أن الإنسان إذا اكتمل عبوديةً لله اكتمل رحمةً بالخلق، وإذا عظم اتصاله بالسماء ازداد تواضعاً في الأرض، وإذا أوتي مقام الرسالة لم يتحول إلى سلطان قاهر، بل بقي عبداً رسولاً، يأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد، ويغضب لله لا لنفسه، ويعفو عند القدرة، ويصبر عند الأذى، ويحمل همَّ البشرية كأنما خلقت الرحمة في قلبه لتجد صورتها العملية في سيرته.

والكتابة الجديدة عنه ﷺ لا تكون بأن نزع أننا سنأتي بمعلومة لم يعرفها السابقون، فهذا باب خطير ومغرور، ولكن بأن نعيد بناء الرؤية من زاوية أعمق:

أن نقرأ السيرة لا بوصفها أحداثاً متتابعة، بل بوصفها هندسة إلهية للإنسان الكامل في مقام العبودية.

محمد ﷺ ليس فقط نبياً جاء برسالة، بل جاء ليكشف أن أعظم صورة للإنسان ليست في القوة المجردة، ولا في العبقرية المجردة، ولا في الزهد المنعزل، ولا في القيادة السياسية وحدها، ولا في البلاغة وحدها، بل في اجتماع ما لا يجتمع عادةً في البشر:

القوة بلا طغيان، والرحمة بلا ضعف، والحزم بلا قسوة، والجمال بلا ترف، والهيبة بلا استعلاء، والتواضع بلا انكسار، والعبادة بلا هروب من الحياة، والسياسة بلا مكر خسيس، والجهاد بلا وحشية، والعفو بلا تهاون، والحب بلا ذوبان عن الحق.

هنا يبدأ التجاوز الحقيقي للمألوف.

أن نكتب عنه ﷺ من جهة التركيب المعجز في الشخصية المحمدية؛ كيف اجتمعت فيه مقامات تبدو في العادة متباعدة: مقام النبي، ومقام القائد، ومقام الزوج، ومقام الأب، ومقام العابد، ومقام المربي، ومقام المجاهد، ومقام الصديق، ومقام الحاكم، ومقام الفقير إلى ربه، ومقام الرحيم بالأمّة، دون أن يطغى مقام على مقام، ودون أن يفسد الكمال في جانب الكمال في جانب آخر.

فالزاهدون كثير، ولكن بعض الزهد قد يضعف عن بناء الدول. والقادة كثير، ولكن القيادة كثيراً ما تجرح الرحمة. والعباد كثير، ولكن بعض العبادة قد تعزل صاحبها عن الناس. والشجعان كثير، ولكن الشجاعة قد تتحول إلى خشونة. والرحماء كثير، ولكن الرحمة قد تنقلب إلى رخاوة.

أما محمد ﷺ فكان كلُّ كمال فيه مضبوطاً بالوحي، فلا رحمته ألغت عدله، ولا عدله جفف رحمته، ولا قوته أذهبت رفته، ولا رفته كسرت قوته.

وهذا باب عظيم: النبي ﷺ بوصفه ميزان الكمالات البشرية.

ونستطيع أن نكتب عنه من جهة أخرى:

أن سيرته ليست مجرد تاريخٍ مضى، بل هي منهج صناعة الإنسان الرسالي. فقد أخذ الوحي إنسان الجزيرة العربية من العصبية إلى الأمة، ومن الثأر إلى العدل، ومن عبادة الحجر إلى شهود الواحد الأحد، ومن الفوضى القبلية إلى النظام الأخلاقي، ومن ضيق النسب إلى سعة الرسالة، وكان مركز هذا التحول هو شخص النبي ﷺ؛ لا لأنه عبقرى اجتماعي فحسب، بل لأنه رسولٌ مؤيَّدٌ بالوحي، جعله الله أسوةً للعالمين.

ومن أعظم ما يمكن أن يُكتب عنه :

محمد ﷺ: الإنسان الذي لم تفسده العظمة.

كم من إنسان إذا عظم في أعين الناس تغير؟

وكم من قائد إذا انتصر انتقم؟

وكم من صاحب دعوة إذا كثر أتباعه اتخذ من الجماهير مرآةً لنفسه؟

لكن النبي ﷺ كلما عظمت منزلته في الأرض ازداد شهوداً لفقره إلى الله، وكلما اتسعت أمته ازداد خوفاً عليها، وكلما انتصر ازداد عفواً، حتى دخل مكة لا دخول الجبارين، بل دخول العبد الشاكر، مطأطئاً رأسه لله، في مشهدٍ لا تقدر الفلسفات السياسية كلها أن تنتج مثله: فاتحٌ يملك لحظة الانتقام، فيحوّلها إلى لحظة رحمة

## تمهيد

### لماذا يصعب أن نكتب عن محمد ﷺ؟

ليست الصعوبة في الكتابة عن رسول الله ﷺ ناشئة من فقر المادة، ولا من قلة الأخبار، ولا من غياب الشواهد، فإن سيرته من أظهر السير، وشمائله من أنقى الشمائل، وأيامه من أحفظ الأيام، وأثره في التاريخ من أبين الآثار، ولكن الصعوبة الحقيقية أن الكاتب يقف أمام شخصية بلغ فيها المعنى الإنساني أرفع ما يمكن أن يبلغه الإنسان حين يصطفيه الله للرسالة، ويهذب بالوحي، ويجعله أسوة للعالمين؛ فإذا أراد القلم أن يصفه وجد أن الألفاظ مهما سمت لا تصعد إلى مقامه، وأن البلاغة مهما اتسعت لا تحيط بسرّه، وأن المديح مهما تأنق يظل واقفاً عند عتبة الجلال لا يدخل إلى كنه الاصطفاء.

إننا لا نكتب عن رجلٍ عظيمٍ فحسب، ولا عن قائدٍ عبقرٍ فحسب، ولا عن مصلحٍ غير مجرى التاريخ فحسب، بل نكتب عن رسولٍ اصطفاه الله، وجعله خاتم النبيين، وأنزل عليه الكتاب، وربّى به الأمة، وفتح به مغاليق القلوب، ونقل به الإنسان من ظلمات الجاهلية إلى نور التوحيد، ومن ضيق العصبية إلى سعة الرسالة، ومن عبادة ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلى عبادة الله الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

ولذلك فإن أول أدبٍ في الكتابة عنه ﷺ أن نعلم أن مقامه لا يُدرك بالبلاغة وحدها، ولا يُوقى بالحب وحده، ولا يُصان بالعاطفة وحدها، بل لا بد أن يجتمع في الكتابة عنه العلم والخشوع، والحبُّ والاتباع، والتأمل والانضباط، والبيان والأدب؛ لأن الحديث عنه ﷺ إذا خلا من العلم انزلق إلى الغلو، وإذا

خلا من الحب جفّ، وإذا خلا من الاتباع صار ترفاً لفظياً، وإذا خلا من الأدب فقد حقيقته وإن زخرف صاحبه العبارة.

إن محمداً ﷺ لا يُقرأ كما تُقرأ الشخصيات الكبرى في التاريخ؛ لأن الشخصيات الكبرى تُقاس بما أنجزته من أثرٍ في الدنيا، أما النبي ﷺ فيُقرأ من جهة الوحي الذي حمّله، والعبودية التي حقّقها، والأمة التي صنعها، والإنسان الذي أعاد بناءه من داخله، والميزان الذي أقامه في الأرض بين السماء والحياة. لقد كان ﷺ أعظم من أن تُختزل سيرته في عبقرية اجتماعية، أو قيادة سياسية، أو بلاغة خطابية، أو إصلاح أخلاقي مجرد؛ لأن هذه كلها وجوه من أثره، وليست حقيقة رسالته. حقيقته أنه عبدُ الله ورسوله، وأن كماله من كمال عبوديته لربه، وأن عظّمته لم تكن عظمة ذاتٍ تستغني، بل عظمة عبدٍ يزداد لله افتقاراً كلما ازداد في الناس مقاماً.

وهنا يبدأ المعنى الذي نريد أن نجعله قلب هذا الكتاب:

**محمد ﷺ هو الإنسان الذي لم تُفسده العظمة.**

وما أكثر الذين أفسدتهم العظمة حين ظفروا بطرفٍ منها.

من الناس من إذا اتسع جاهه ضاق قلبه، وإذا علا ذكره انخفض تواضعه، وإذا كثر أتباعه قلّ إصغاؤه، وإذا انتصر قسا، وإذا حكم استعلى، وإذا مدحه الناس صدّق في نفسه ما ليس له، وإذا فتحت له الدنيا باباً أغلق عن الرحمة أبواباً. ذلك أن العظمة في الإنسان غير المهذب بالوحي قد تتحول إلى فتنة؛ تمدّه بالقوة وتسرق منه الرقة، وترفعه في العيون وتخفضه في الميزان، وتمنحه القدرة وتسلبه العدل.

أما رسول الله ﷺ فقد اجتمعت له من أسباب العظمة ما لم يجتمع لبشر بعده: نبوة، ووحى، واتباع، ونصر، وفتح، وهيبة، ومحبة، وتأثير باقي القرون؛ ومع ذلك بقي عبداً لله، لا يتخذ من العظمة حجاباً بينه وبين الناس، ولا يجعل من النصر ذريعةً إلى البطش، ولا من المكانة باباً إلى الاستعلاء، ولا من المحبة العامة غداءً للذات، بل كان كلما اتسع أثره ازداد خضوعاً لله، وكلما أقبلت عليه الدنيا جعل وجهه إلى الآخرة، وكلما قوي سلطانه في الأرض بقي قلبه معلقاً بربه، وكلما انتصر للحق لم ينتصر لنفسه.

هذه هي المعجزة الأخلاقية الكبرى في سيرته:

أن القوة لم تُذهب رحمته، وأن الرحمة لم تُضعف حقه، وأن التواضع لم يُسقط هيئته، وأن الهيبة لم تخرجه عن لين جانبه، وأن السياسة لم تفسد صفاءه، وأن العبادة لم تعزله عن الناس، وأن الفقر إلى الله لم يمنعه من عمارة الأرض، وأن مخالطة البشر لم تنقص من شهوده لربه.

لقد كان ﷺ كاملاً في مقام البشرية لا بمعنى أنه خرج عن بشريته، بل بمعنى أنه حقق أشرف صورة للبشرية حين تصير البشرية مملوكةً لله، مؤدبةً بالوحي، محكومةً بالحق، مشحونةً بالرحمة، صادقةً في السر والعلن. وهذا بابٌ دقيق؛ فإن بعض الناس يظنون أن تعظيم النبي ﷺ يكون بإخراجه من معنى البشرية، مع أن القرآن عظم مقامه بأن أثبت رسالته وعبوديته واصطفاه، لا بأن جعله خارجاً عن سنن الإنسان. قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ).

ففي قوله: بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ حفظٌ لمعنى الاقتداء، وفي قوله: يُوحَىٰ إِلَيَّ بيانٌ لمقام الاصطفاء. ولو لم يكن بشراً ما صحت الأسوة، ولو لم يكن يوحى إليه ما

كانت الرسالة. فالكمال المحمدي ليس إلغاءً للبشرية، بل هو ترقية لها بالوحي، حتى يرى الإنسان في سيرته ﷺ أعلى ما يمكن أن تصير إليه النفس حين تتربى بالله، والله، وعلى هدى الله.

ومن هنا لا نريد في هذا الكتاب أن نعيد سرد السيرة كما تُسرد الوقائع، ولا أن نجمع الشرائع كما تجمع الصفات، ولا أن نكتب مدائح منثورة وإن كان المدح له ﷺ شرفاً إذا ضبطه العلم والأدب، بل نريد أن ندخل إلى البنية العميقة للشخصية المحمدية، إلى ذلك التوازن النادر الذي جعل حياته ﷺ ميزاناً للكمالات البشرية، حتى كأن كل فضيلة إذا انفردت في غيره نقصت، وإذا دخلت في شخصه الشريف استقامت؛ فالشجاعة عنده رحمة، والرحمة عنده عدالة، والعدل عنده غير جاف، والحزم عنده غير قاس، والزهد عنده غير انسحاب من الحياة، والعبادة عنده غير انقطاع عن مصالح الخلق، والقيادة عنده غير افتتان بالسلطة، والعفو عنده غير تهاون في الحق.

إننا أمام نبيٍّ إذا دخل بيته رأيت الجمال الأخلاقي في أقرب دوائره، وإذا وقف في المسجد رأيت العبودية في أنقاها، وإذا قاد الأمة رأيت الحزم المؤدب بالوحي، وإذا عامل المخالف رأيت العدل الذي لا تحكمه شهوة الانتقام، وإذا خاطب الضعفاء رأيت قلباً لا يقيس الناس بأقدارهم الاجتماعية بل بما أكرمهم الله به من الإنسانية والإيمان، وإذا انتصر رأيت النصر ساجداً لا متكبراً، وإذا أودى رأيت الصبر كبيراً لا ذليلاً، وإذا ملك القدرة على العقوبة رأيت العفو يخرج من موضع القوة لا من موضع العجز.

وهذا وحده كافٍ ليُجعل السيرة النبوية ليست مجرد تاريخٍ للمسلمين، بل مدرسةً كونيةً في معنى الإنسان حين يصير على هدى الوحي.

إن السؤال الذي ينبغي أن يحكم هذا الكتاب ليس: كيف نمدح النبي ﷺ؟ بل: كيف نفهم السر الذي جعل مدحه عاجزاً عن مقامه؟

وليس السؤال: كيف نثبت عظمته؟

فقد أثبتتها الله قبل أن تثبتها الأقلام، وشهدت بها أمته، وأذن لها منصفو الخلق، بل السؤال: كيف نقرأ هذه العظمة قراءةً تبني الإنسان، وتوقظ القلب، وتردّ المسلم من إعجابٍ باردٍ بالسيرة إلى اقتداءٍ حيٍّ بصاحبها؟

فكم من مسلمٍ يحب النبي ﷺ بلسانه، لكنه لم يسمح لهذا الحب أن يعيد ترتيب أخلاقه.

وكم من قارئٍ للسيرة يعجب بمواقفها، لكنه يعزلها عن قراراته اليومية. وكم من مادحٍ يفيض لفظاً، ثم لا يظهر من أثر المديح في حلمه، وصدقه، ووفائه، ورحمته، وحزمه، وعدله، وتواضعه شيءٌ كثير.

والحب النبوي الصادق ليس حرارةً عاطفيةً عابرة، بل ولاءٌ يتجسد في الاتباع، وأدبٌ يظهر في التلقي، وشوقٌ يثمر طاعة، ومعرفةٌ تقود إلى تشبهٍ على قدر الطاقة البشرية. فليس المطلوب أن يقرأ الإنسان السيرة ليقول: ما أعظم محمداً ﷺ، ثم يبقى كما هو؛ بل أن يقرأها حتى يسأل نفسه: أين أنا من هذا الخلق؟ أين أنا من هذا الصدق؟ أين أنا من هذا الصبر؟ أين أنا من هذا العدل؟ أين أنا من هذا الرحمة؟ أين أنا من عبوديةٍ كلما علت ازدادت خضوعاً؟

لذلك سيكون هذا الكتاب محاولةً في قراءة رسول الله ﷺ من زاويةٍ مخصوصة: زاوية العظمة المؤدبة بالعبودية؛ أي كيف كان ﷺ في ذروة المقام، ثم بقي في ذروة التواضع؛ وكيف كان أعظم الناس أثرًا، ثم كان أشدهم افتقارًا إلى ربه؛ وكيف دانت له القلوب، فلم يجعل محبة الناس له بابًا إلى تعظيم الذات، بل جعلها بابًا إلى هدايتهم إلى الله؛ وكيف فتح الله به الفتوح، فلم يكن الفتح عنده انتشاء المنتصر، بل شكر العبد؛ وكيف خضع له الرجال الأشداء، فلم يحكمهم بالكبرياء، بل ربّاهم بالوحي، وغرس فيهم من روحه التربوية ما جعلهم قادةً وعدولاً وشهداء على الناس.

إن التاريخ يعرف رجالًا كبارًا، لكن كثيرًا من الكبار إذا اقتربت منهم رأيت الفجوة بين صورتهم العامة وحقيقتهم الخاصة؛ يلمعون في المشهد البعيد، فإذا دنوت من بيوتهم رأيت اضطرابًا، وإذا فتشت في أخلاقهم رأيت تناقضًا، وإذا قرأت لحظات القوة عندهم رأيت وجوهاً من الاستبداد أو الرغبة أو الانتقام. أما النبي ﷺ فكلما اقتربت منه ازدادت له حُبًا، وكلما دخلت إلى تفاصيل حياته وجدته أعظم من صورته العامة، لأن عظمته لم تكن مصنوعةً للجمهور، بل كانت صادقةً في السر والعلن، في البيت والمسجد، في السلم والحرب، في الرضا والغضب، في الفقر والغنى، في الضعف والتمكين.

وهذا معيارٌ نادر في العظمة:

أن يكون الباطن أصفى من الظاهر، وأن تكون الخلوة شاهدةً للعانية، وأن يكون البيت مؤكدًا للمنبر، وأن يكون السلوك اليومي أصدق تفسيرًا للدعوة الكبرى.

لقد كان ﷺ قرآنًا يمشي بين الناس، لا بمعنى أن ذاته هي القرآن، فالقرآن كلام الله المنزل غير مخلوق، ولكن بمعنى أن أخلاقه كانت استجابةً حيةً لهدى القرآن، وأنه كان أتمّ الناس امتثالًا لما أوحاه الله إليه، حتى صارت سيرته مفتاحًا لفهم كيف يتحول الوحي من آياتٍ تتلى إلى إنسانٍ يتحرك بالحق والرحمة في الأرض.

ومن هنا فإننا حين نكتب عن رسول الله ﷺ لا نكتب عن الماضي وحده، بل نكتب عن مستقبل الإنسان أيضًا؛ لأن البشرية كلما تقدمت في أدواتها وازدادت قوةً في مادتها احتاجت أكثر إلى هذا النموذج الذي يعلمها أن القوة بلا رحمة خراب، وأن الحرية بلا عبودية لله ضياع، وأن العقل بلا وحي قد يبرع في الوسائل ويضل في الغايات، وأن السياسة بلا أخلاق تتحول إلى مكر، وأن الحضارة بلا تزكية تنتج إنسانًا واسع القدرة ضيق الروح.

إن محمدًا ﷺ ليس ذكرى كريمة في وجدان المسلمين، بل هو الأسوة الباقية التي لا يشيخ معناها؛ لأن حاجات الإنسان الكبرى لم تتغير: ما زال الإنسان يحتاج إلى معنى، وإلى رحمة، وإلى عدل، وإلى طهارة قلب، وإلى صلة بالله، وإلى ميزان يضبط شهوته وقوته وخوفه وغضبه وأمله. وكل هذه المعاني يجدها في السيرة النبوية لا بوصفها مبادئ مجردة، بل بوصفها حياةً عيشت، وخلقًا تحقق، وابتلاءً صبر عليه، ونصرًا شكر الله عليه، ورسالةً أُدِّيت على أكمل وجه.

هذه محاولة إذن، لا لبلوغ مقامه بالوصف، فذلك محال، بل للاقترب المؤدب من بعض أنواره، ولإعادة قراءة السيرة من جهةٍ نحتاجها في زمنٍ فسدت فيه

كثيرٌ من صور العظمة، حتى صار الناس يخلطون بين الشهرة والقيمة، وبين القوة والحق، وبين التأثير والهداية، وبين الذكاء والحكمة، وبين الانتصار والاستقامة.

وسنحاول أن نقول عبر صفحات هذا الكتاب:

إن أعظم ما في النبي ﷺ بعد مقام النبوة والرسالة أنه قدّم للبشرية نموذج الإنسان الذي بلغ الغاية في الشرف، ولم ينفصل عن الرحمة؛ وبلغ الغاية في القوة، ولم يفارق العدل؛ وبلغ الغاية في المحبة، ولم يرضَ أن يُعبد من دون الله؛ وبلغ الغاية في الأثر، ولم ينسب الفضل إلى نفسه؛ وبلغ الغاية في العظمة، ولم تفسده العظمة.

ذلك هو محمد رسول الله ﷺ:

عبدٌ عظيم لأنه أتمّ العبودية،

ورسولٌ رحيم لأنه جاء بالهدى،

وقائدٌ كامل لأن قيادته كانت لله،

ومعلمٌ خالد لأن تعليمه لم يصنع أذهاناً فقط، بل صنع نفوساً،

وإنسانٌ اصطفاه الله ليكون في التاريخ برهاناً على أن الوحي إذا ربّى

الإنسان، صنع منه كائنًا لا تبتلعه الأرض وإن عاش عليها، ولا تفتنه

العظمة وإن اجتمعت له، ولا تنسيه الخلق صلته بالخالق، ولا تحجبه القوة

عن الرحمة، ولا يحجبه النصر عن السجود.

ومن هنا نبدأ.

## الفصل الأول

### الكمال الذي لم يكن انفصالاً عن البشر

من أعمق أبواب النظر في شخصية رسول الله ﷺ أن كماله لم يكن كمالاً يقطع صلته بالبشر، ولا رفعةً تجعله خارجاً عن معنى الإنسان، بل كان كمالاً يردّ الإنسان إلى أصفى إمكاناته، ويكشف أن البشرية ليست نقصاً في ذاتها، وإنما النقص حين تتفصل البشرية عن هدى الله، وحين تُترك النفس لشهواتها، والقوة لغرورها، والعقل لكبريائه، والقلب لغفلته، والحرية لانفلاتها. أما حين تدخل البشرية في تربية الوحي، فإنها لا تُمحي، بل تُزكّى؛ ولا تُلغى، بل تُهذَّب؛ ولا تُسحق، بل تُرفع إلى مقام العبودية التي هي أشرف مقامات الإنسان.

لقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: **(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)**، وهذه الآية تضع الميزان الدقيق في فهم الشخصية المحمدية: فهو بشرٌ من حيث الجنس الإنساني، يأكل، ويمشي في الأسواق، ويتزوج، ويحزن، ويفرح، ويتألم، ويصبر، ويجاهد، ويدعو، ويعيش بين الناس لا فوقهم، ولكنه ليس بشرًا عاديًا من حيث الاصطفاء والرسالة والوحي والمقام؛ فهو بشرٌ يوحى إليه، وعبدٌ اصطفاه الله، ورسولٌ جعله الله خاتم النبيين، وأسوةً للمؤمنين، ورحمةً للعالمين.

وهنا سرٌّ عظيم:

لو أن النبي ﷺ جاء في صورةٍ لا تشبه البشر، أو في مقامٍ لا يمسّ حياة الناس، أو في هيئةٍ لا تعرف التعب ولا الابتلاء ولا المعاناة، لفقدت السيرة معناها التربوي، ولصار الاقتداء به تعلّقًا بصورةٍ بعيدة لا يدخلها الإنسان في حياته. ولكن الله جعل رسوله ﷺ بشرًا؛ ليكون القرب منه ممكنًا، والاقتداء به واقعيًا، والتأسي به طريقًا مفتوحًا لا حلمًا مستحيلًا. ومع ذلك لم يكن هذا القرب إلغاءً لجلاله، بل كان جلاله في هذا القرب نفسه؛ أن يكون في الناس، ولا تبطله طبائع الناس؛ وأن يخالط الحياة، ولا تلوّثه أحوالها؛ وأن يعيش حاجات البشر، ولا يستعبد له شيءٌ من تلك الحاجات؛ وأن يحمل أثقال الرسالة في قلبٍ بشريٍّ، فيظل قلبه أوسع من الأذى، وأرحم من الغضب، وأصدق من الخوف، وأثبت من المحن.

إن بعض العظماء يُدهشك من بعيد، فإذا اقتربت منه رأيت نقصًا خفيًا يخدش الصورة؛ لأن المسافة تحمي أو هام العظمة، والبعد يسمح للخيال أن يكمل ما نقص من الحقيقة. أما رسول الله ﷺ، فكلما اقتربت منه ازددت يقينًا بعظمته، لأن عظمته لم تكن محروسةً بالمسافة، ولا مصنوعةً بالهيئة الاجتماعية، ولا قائمةً على الغموض، بل كانت عظمةً مكشوفةً في تفاصيل الحياة: في بيته، في سفره، في طعامه، في صمته، في غضبه، في رضاه، في معاملته للضعيف، في حمله لهموم أصحابه، في وفائه لمن أحسن إليه، في رحمته بالصغير، في احترامه للمرأة، في إنصافه للخصم، في أدبه مع ربه، في بكاؤه، في قيامه، في دعائه، في سجوده، في عفوه حين يقدر، وفي ثباته حين تضيق الأرض على الدعوة.

هذه هي العظمة التي لا تخاف التفاصيل.

فما أكثر العظمة التي تعيش على المنابر وتنهار في البيوت، وتسقط في الخطب وتظلم في المعاملة، وتبدو شامخة في المواقف العامة ثم تضطرب حين تدخل إلى أخلاق صاحبها اليومية. أما النبي ﷺ فكان كماله في الدائرة القريبة كما كان في الدائرة العامة؛ بل إن الدائرة القريبة تكشف من كماله ما لا تكشفه ساحات الفتح ومواطن الخطابة، لأن الإنسان قد يتكلف أمام الناس ما لا يتكلف في بيته، وقد يضبط صورته أمام الجمهور ثم تظهر حقيقته عند من يلزمه. ومن هنا كانت شهادة أهل بيته وأصحابه أبلغ في الدلالة على صدقه وكمالته؛ لأنهم رأوه في لحظات القرب، حيث تسقط الأقنعة، وتظهر الطباع، ويُعرف الإنسان بما هو عليه لا بما يختاره من صورة أمام الناس.

ولذلك لا يصح أن تُقرأ بشرية النبي ﷺ بوصفها نقصاً، بل بوصفها موضع الأسوة. إن الله لم يبعث ملكاً إلى البشر، بل بعث رسولاً منهم، يعرف لغتهم، ويعيش ابتلاءاتهم، ويمرّ على آلامهم، ويواجه عنادهم، ويصبر على أذاهم، ويعلمهم من داخل التجربة الإنسانية لا من خارجها. فالنبي ﷺ لم يكن مثلاً معلقاً في التجريد، بل كان حياةً كاملةً تتحرك في الأرض؛ ولهذا صار الاقتداء به ممكناً في الصلاة والسوق، في البيت والحرب، في الفقر والغنى، في الرضا والغضب، في الانتصار والانسكاس، في القيادة والتواضع، في العبادة ومخالطة الناس.

إن الكمال المحمدي لا يقول للإنسان: اخرج من بشريتك حتى تقترب من الله، بل يقول له: أدخل بشريتك في طاعة الله حتى ترتفع.

لا يقول له: اقتل عواطفك، بل زكّها.  
 ولا يقول له: اهرب من الحياة، بل اضبطها بالوحي.  
 ولا يقول له: تخلّ عن القوة، بل اجعلها خادمة للعدل.  
 ولا يقول له: ألغ حاجاتك، بل لا تجعلها آلهة خفية تتحكم فيك.  
 ولا يقول له: كن ملاكًا، بل كن عبدًا لله على بصيرة.

وهذا فارقٌ عظيم بين التصور النبوي للإنسان وبعض التصورات التي لا ترى القداسة إلا في الانسحاب من الحياة، ولا ترى الطهر إلا في كسر الفطرة، ولا ترى السمو إلا في مفارقة الجسد ومطالب الأرض. لقد جاء النبي ﷺ ليقم في الأرض إنسانًا ربانيًا، لا إنسانًا هاربًا من الأرض؛ إنسانًا يصلي ويعمل، يحب ويعدل، يتزوج ويعبد، يجاهد ويرحم، يحكم ويتواضع، يملك ولا يطغى، يفتقر إلى الله ولا يعجز عن حمل مسؤوليات الدنيا.

ومن هنا نفهم أن رسول الله ﷺ لم يكن عظيمًا لأنه لم يعرف الضعف البشري من حيث آلامه ومحنه، بل لأنه عرف الابتلاء ولم ينكسر، وعرف الحزن ولم ييأس، وعرف الأذى ولم ينتقم لنفسه، وعرف الفقر ولم يسخط، وعرف النصر ولم يطغ، وعرف القدرة ولم يظلم، وعرف المحبة ولم يجعلها بابًا إلى الغلو فيه. لقد مرّت عليه أحوال البشر الكبرى، لكنها لم تخرجه عن ميزان العبودية، كأن الوحي كان يعيد ترتيب كل شعورٍ في داخله الشريف، حتى لا يتحول الحزن إلى اعتراض، ولا الغضب إلى هوى، ولا القوة إلى بغي، ولا الرحمة إلى تعطيل للحق، ولا الزهد إلى احتقار للحياة، ولا الحب إلى تجاوز لحدود الله.

وهذا هو معنى الكمال في مقام العبودية:

أن يبقى الإنسان إنساناً، لكن لا يبقى أسيراً لظلم الإنسان لنفسه.

لقد جاء النبي ﷺ في واقعٍ كان الإنسان فيه ممزقاً بين الأصنام والعصبيات، بين قسوة القبيلة وضياع المستضعف، بين تفاخر النسب وامتهان الضعيف، بين حمية الدم وغياب الميزان، بين فصاحة اللسان وظلمة القلب. فجاء الوحي على قلبه الشريف، لا ليضيف فكرةً إلى الأفكار، بل ليعيد خلق الإنسان من الداخل، وكان هو ﷺ أول من تلقى هذا النور وأكمّله امتثالاً، فصار في شخصه برهاناً على أن القرآن لا يصنع ثقافةً فحسب، بل يصنع إنساناً؛ لا يعلم اللسان فقط، بل يطهر القلب؛ لا ينظم السلوك الظاهر فقط، بل يعيد ترتيب المقاصد والمخاوف والآمال.

إن الناظر إلى السيرة يرى أن النبي ﷺ لم يبين أصحابه بالمعلومات وحدها، بل بالقدوة الحية. كانوا يرون القرآن في صبره قبل أن يسمعون تفسير الصبر، ويرون الرحمة في معاملته قبل أن يدرسوا أبواب الرحمة، ويرون التواضع في جلوسه ومشيه وخلقه قبل أن يتكلموا عن فضيلة التواضع، ويرون العدل في حكمه قبل أن يضعوا نظريات العدالة، ويرون الصدق في حياته كلها قبل أن يصوغوا تعريفاً للصدق. ولهذا كانت التربية النبوية عميقة الأثر؛ لأنها لم تفصل المعنى عن النموذج، ولا القول عن الحال، ولا التعليم عن المثال.

ومن هنا كانت سيرته ﷺ أبلغ من كل فلسفةٍ أخلاقية؛ لأن الفلسفة قد تصف الفضيلة، أما السيرة فقد جسّدتها. والفكر قد يضع معياراً للكمال، أما النبي ﷺ فقد عاش هذا المعيار. والتنظير قد يقول للإنسان: كن رحيماً، عادلاً، صادقاً،

متواضعًا، ثابتًا، لكن السيرة تقول له: انظر كيف تكون هذه المعاني حين تدخل في حياة كاملة لا في جملة مجردة.

وهذا هو الفرق بين المثال المكتوب والمثال المعاش.

فالنبي ﷺ لم يقدّم الأخلاق في صورة وصايا منفصلة، بل جعلها نسيجًا واحدًا في حياة واحدة. ومن أعمق ما في هذا النسيج أن الأخلاق عنده لم تكن لحظات انتقائية، بل كانت ثابتًا في اختلاف الأحوال. كثيرٌ من الناس يكون رحيماً ما دام غير مهتدٍّ، ويكون عادلاً ما دام الحكم لا يمسّ مصلحته، ويكون متواضعًا ما دام لا يملك أسباب الكبر، ويكون صبورًا ما دامت المحنة محتملة، ويكون عفيفًا ما دام الباب مغلقًا، ويكون كريماً ما دام الفائض كثيرًا. أما النبي ﷺ فكانت أخلاقه ثابتة حين تغيّرت الظروف؛ في الضعف والقوة، في مكة والمدينة، في الحصار والفتح، في الأذى والنصر، في القلة والكثرة. وهذا الثبات هو ما يكشف أن الخلق لم يكن عادة اجتماعية، بل عبودية راسخة.

وهنا ينبغي أن نقف عند معنى دقيق:

الخلق النبوي لم يكن جمالاً نفسياً منفصلاً عن العقيدة، بل كان ثمرة التوحيد. فهو ﷺ كان أصدق الناس رحمةً لأنه أصدقهم معرفةً بالله، وأثبتهم عدلاً لأنه أعظمهم قيامًا بأمر الله، وأكملهم تواضعًا لأنه أعلمهم بربه وبحقيقة العبد، وأشدّهم زهدًا لأنه أبصرهم بحقيقة الدنيا، وأقواهم صبرًا لأنه أوثقهم بوعد الله. فالأخلاق في السيرة ليست زينةً خارجيةً على الإيمان، بل هي الإيمان حين ينزل من التصور إلى السلوك، ومن الاعتقاد إلى المعاملة، ومن المعرفة إلى الحركة.

ولهذا لا نستطيع أن نفهم النبي ﷺ إن فصلنا جمال أخلاقه عن مقام عبوديته. فالذين يعجبون به بوصفه مصلحاً أخلاقياً فقط، أو قائداً إنسانياً فقط، أو عبقرياً تاريخياً فقط، ينظرون إلى الأثر ويغفلون عن المنبع. إن منبع هذا كله أنه رسول الله، وأن قلبه الشريف كان موصولاً بالوحي، وأنه لم يكن يصدر عن ذوق إنساني مجرد، ولا عن تجربة شخصية فقط، بل عن هدى الله الذي رباه وأدبه، فكان كماله شاهداً على صدق الرسالة، وكانت سيرته ترجمة عملية لمعنى أن يكون الإنسان عبداً لله.

ومن أعظم ما يكشف كمال هذه البشرية المؤدبة بالوحي أنه ﷺ لم يسمح لأحد أن يرفعه إلى مقام لا يليق إلا بالله. كان يحب أن يُعرف عبداً رسولاً، لا معبوداً ولا رباً ولا ذاتاً مستقلةً بالتقديس. وهذا من تمام كماله؛ لأن أعظم الناس مقاماً هو أشدهم حفظاً لحق الله، وأصدقهم عبوديةً هو أبعدهم عن أن يقبل من الخلق غلوّاً يخرجهم عن حد العبودية. لقد علّم أمته أن محبته لا تكون بالغلو فيه، بل باتباعه، وأن توقيره لا يكون بمجاوزة الشرع، بل بالوقوف عند ما أمر الله به، وأن تعظيمه الحق هو أن يُطاع فيما جاء به عن ربه، وأن يُحبّ فوق النفس والولد والناس أجمعين، دون أن يُجعل له شيء من خصائص الربوبية؛ فالله وحده الإله الحق، لا شريك له، ليس كمثله شيء، وكل مخلوق عبداً له، ومحمد ﷺ أشرف عباده ورسله.

وهذا الاتزان نفسه جزء من عظمته:

أنه دلّ الناس على الله لا على نفسه، وفتح لهم باب الهداية لا باب التعلق بشخصه خارج حدود الوحي، وجعل محبته طريقاً إلى الطاعة لا طريقاً إلى الغلو. فكان هو الإنسان الكامل في مقام العبودية؛ كماله لا ينازع التوحيد،

بل يخدمه، وعظمته لا تحجب عن الله، بل تدل عليه، ومحبته لا تخرج القلب عن إخلاصه لله، بل تزيده التزامًا بما أمر الله به.

إن السيرة إذن ليست سيرة رجلٍ عظيم فقط، بل سيرة عبدٍ اصطفاه الله ليكشف للبشرية أن أعلى مقامات الإنسان ليست في أن يستغني، بل في أن يفتقر إلى الله؛ وليست في أن يُعبد، بل في أن يعبد الله؛ وليست في أن يملك الناس، بل في أن يهديهم إلى رب الناس؛ وليست في أن يعلو عليهم بكبرياء، بل في أن يرفعهم بالحق؛ وليست في أن يتخذ من القوة مقامًا لنفسه، بل في أن يجعلها أمانةً لله.

ومن هنا يصبح الاقتداء بالنبي ﷺ ليس تكرارًا شكليًا لبعض مظاهر حياته، بل دخولًا في منطق العميق: أن يكون الإنسان لله في كل شأنه، وأن يزن عواطفه بالوحي، وأن يحكم قوته بالعدل، وأن يضبط محبته بالاتباع، وأن يجعل أخلاقه ثمرةً لعقيدته، وأن يتعامل مع الناس من مقام الرحمة لا من مقام الاستعلاء، وأن يرى الدنيا ممرًا لا مستقرًا، ومسؤوليةً لا غنيمَةً، وابتلاءً لا مجالًا للغرور.

لقد كان ﷺ بشرًا، نعم، لكنه كان بشرًا ربّه الوحي حتى صار معيارًا للبشر. وكان قريبًا من الناس، نعم، لكنه كان قريبًا يرفعهم لا يساويهم بذاته في مقام الاصطفاء.

وكان يعيش في الأرض، نعم، لكنه لم يكن عبدًا للأرض. وكان يحب ويغضب ويرضى ويحزن، نعم، لكن هذه المشاعر كلها كانت داخلةً في أدب العبودية.

ولذلك فإن أول ما نتعلمه من هذا الفصل أن الكمال المحمدي ليس أسطورةً عاطفيةً نعلّقها على جدار الوجدان، بل حقيقةً تربويةً ينبغي أن تعيد تعريف الإنسان عندنا. فالإنسان في ضوء السيرة ليس كتلة شهوة، ولا عقلاً مجرداً، ولا جسداً يبحث عن لذته، ولا فرداً يطارد مجده الخاص، بل هو كائنٌ مخلوقٌ لعبادة الله، مفتوحٌ على التزكية، قادرٌ بالوحي على أن يتجاوز ضيق طبعه، وأن يصعد من فوضى النفس إلى نظام العبودية، ومن أنانية الرغبة إلى رحمة الرسالة، ومن هشاشة الانفعال إلى ثبات اليقين.

وهذا هو الباب الذي نحتاجه اليوم أكثر من أي وقتٍ مضى. فالعالم الحديث يكثر فيه الكلام عن الإنسان، لكنه كثيراً ما يجهل غايته؛ يوسع أدواته ويضيق روحه، يطلق رغباته ويضعف ضميره، يعظم حريته وينسى عبوديته لله، يرفع شعار الكرامة ثم يفقد الميزان الذي يحمي الكرامة من العبث. أما السيرة النبوية فتدرك الإنسان إلى أصله ووجهته: أنت مكرمٌ لأن الله كرّمك، ومكلفٌ لأن الله خاطبك، ومسؤولٌ لأنك ستلقى ربك، وحرٌّ بقدر ما تتحرر من عبودية غير الله، وعظيمٌ بقدر ما تكون عبداً لله لا عبداً لنفسك وهواك والناس.

إن محمداً ﷺ هو البرهان الحي على أن الإنسان لا يكتمل حين يطلق نفسه، بل حين يسلمها لله؛ ولا يعظم حين يتضخم، بل حين يتزكى؛ ولا يسمو حين ينفصل عن الوحي، بل حين يدخل في نوره؛ ولا يصير رحمةً للعالم من حوله إلا حين يكون قلبه أولاً تحت سلطان الرحمة التي جاء بها الوحي.

وهكذا نخرج من هذا الفصل بأصلٍ جامع:

أن بشرية النبي ﷺ لم تكن حجابًا عن كماله، بل كانت موضع ظهور هذا الكمال؛ وأن اصطفاؤه لم يبلغ إنسانيته، بل رفعها إلى أعلى مقامٍ يمكن أن تبلغه البشرية؛ وأن الاقتداء به لا يبدأ من الإعجاب بصفاته، بل من إدراك السر الذي جمع هذه الصفات كلها: العبودية الكاملة لله.

ومن لم يفهم هذا الأصل، فسيظل يقرأ السيرة قراءةً مجزأة؛ يعجبه موقفٌ هنا، ويطر به وصفٌ هناك، لكنه لا يرى البنية الجامعة التي جعلت محمدًا ﷺ إنسانًا لم تفسده العظمة، ورسولًا لم تحجبه الرسالة عن الرحمة، وقائدًا لم تخرجه القيادة عن العبودية، ومعلمًا لم يكن تعليمه ألفاظًا، بل حياةً كاملةً تقول للإنسان في كل عصر:

هكذا يكون الإنسان حين يربّيه الله.

## الفصل الثاني

### العِظْمَةُ الَّتِي بَقِيَتْ سَاجِدَةً

ليس كلُّ من عَظُمَ في الأرض بقي عَظِيمًا في الميزان؛ فإن من العظمة ما يكون فتنةً لصاحبه قبل أن يكون شرفًا له، ومن الرفعة ما تنقلب حجابًا على القلب إذا لم تُضبط بالعبودية، ومن الانتصار ما يهزم المنتصر من داخله إذا جعله يرى نفسه لا يرى فضل الله عليه، ومن النفوذ ما يملأ اليد ويفرغ الروح، ومن اتساع الذكر ما يضيق به القلب حتى لا يعود يتسع للحق، ولذلك كانت العظمة المحمدية من أندر العظام وأطهرها؛ لأنها لم تكن عظمة صاعدة من شهوة الذات، بل عظمة نازلة تحت سلطان الوحي، ولم تكن رفعةً تبتلع التواضع، بل رفعةً كلما علت ازدادت سجودًا لله، ولم تكن مقامًا ينسي العبد فقره، بل مقامًا يكشف أن أشرف ما في الإنسان أن يعرف أنه عبد.

كان محمد ﷺ أعظم الناس، ولكنه لم يعيش عظمةً تستدير حول نفسه، بل عاش عظمةً تشير إلى الله. لم يكن حضوره الشريف يطلب أن تنتهي القلوب إليه استقلالًا، بل كان يأخذها إلى ربها، ويطهرها من عبودية غير الله، ويحررها من سلطان البشر والحجر والهوى، ويقول لها بلسان الرسالة والحال: لا نجاة لك إلا بالله، ولا عز لك إلا في طاعته، ولا معنى لك إلا حين تعرف غايتك التي خلقت لها.

وهذه هي النقطة التي تميز عظمة النبي ﷺ عن كل عظمة بشرية مجردة؛ فإن العظمة البشرية إذا لم تتصل بالله كثيرًا ما تتحول إلى مركزية ذاتية، تجعل صاحبها يرى الناس من حوله امتدادًا لمجده، أو أدواتٍ لتاريخه، أو شهودًا على تفوقه. أما عظمة النبي ﷺ فكانت نقيض ذلك؛ كان هو العظيم الذي لا يدعو الناس إلى نفسه، بل إلى الله، ولا يجعل محبتهم له بابًا للغلو فيه، بل بابًا لطاعة ربه، ولا يسمح للقلوب أن تتحرف من توقيره المشروع إلى ما يختص بالله وحده، بل يربّيها على التوحيد الخالص، حتى يكون الحب النبوي طريقًا إلى الله، لا حجابًا عن الله.

ولذلك كان من تمام عظمته ﷺ أنه عرّف نفسه في أشرف مقاماته بأنه عبدٌ لله ورسوله. فالعبودية هنا ليست وصفًا عاديًا، بل هي تاج المقام؛ لأن الإنسان كلما علا في مراتب القرب من الله ازداد علمًا بحقيقة نفسه وحقيقة ربه، فعرف أن كل ما عنده من فضل فمن الله، وأن كل ما ناله من مقام فباصطفاء الله، وأنه لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا إلا ما شاء الله، وأن العظمة الحقيقية ليست في أن يتضخم العبد حتى ينسى فقره، بل في أن يزداد شهودًا لفقره كلما ازداد فضل الله عليه.

إن العظمة إذا دخلت قلبًا غير مزكّى صنعت فيه ثلاث آفات:

تصديق النفس، واحتقار الناس، ونسيان المنعم.

أما في قلب النبي ﷺ فقد تحولت العظمة إلى شكر، والفتح إلى سجود،

والتمكين إلى رحمة، ومحبة الناس إلى مسؤولية، والاتباع إلى خوفٍ

عليهم، والنصر إلى تواضع، حتى كأن كل بابٍ من أبواب المجد الذي يُفسد

غيره كان يزيده ﷺ طهارةً وخضوعًا.

وهذا من أدق أسرار السيرة:

أن الله جمع له من أسباب الرفعة ما لو اجتمع لبعض البشر لأهلكه، ثم صانه بالعبودية الكاملة، فكان في مقام النبوة عبداً، وفي مقام القيادة عبداً، وفي مقام الفتح عبداً، وفي مقام التعليم عبداً، وفي مقام المحبة العامة عبداً، وفي مقام الخصومة عبداً، وفي مقام القضاء عبداً، وفي مقام البيت عبداً، وفي مقام الليل عبداً. لا يخرج من العبودية في حالٍ من أحواله، ولا يجعل لحظة القوة استثناءً من الأدب مع الله، ولا يرى أن الانتصار يبيح للنفس ما لم يكن مباحاً لها في الضعف.

وهنا تظهر إحدى القواعد الكبرى في هندسة الشخصية المحمدية:

**كلُّ مقامٍ عالٍ عند النبي ﷺ كان محروساً بمقام العبودية.**

فالنبوة حرسها البلاغ عن الله لا ادعاء الاستقلال.

والقيادة حرسها العدل لا التسلط.

والهيبة حرسها التواضع لا الاستعلاء.

والقوة حرسها الحلم لا البطش.

والعفو حرسه الحق لا الضعف.

والحب حرسه الاتباع لا الغلو.

والنصر حرسه السجود لا الزهو.

ومن لم يفهم هذه القاعدة، ظن أن العظمة في أن يعلو الإنسان فوق الناس، بينما تعلمنا السيرة أن العظمة في أن يعلو الإنسان على نفسه أولاً؛ أن لا تستعبده قوته، ولا تغره شهرته، ولا تفسده محبة الناس، ولا ينتقم لنفسه باسم

الحق، ولا يجعل من الرسالة التي يحملها ميداناً لتعظيم ذاته. لقد كان ﷺ أكبر من ذاته، لأنه كان لله؛ وكل إنسانٍ لا يصير أكبر من ذاته بعبوديته لله تبتلعه ذاته ولو امتلك الدنيا.

إن لحظة الفتح من أعظم المشاهد التي تكشف هذه الحقيقة. فالناس في العادة إذا طال عليهم الأذى، ثم دارت لهم الأيام، ثم دخلوا البلد الذي أخرجوا منه، وملكوا رقاب من آذاهم، لم يسلموا من نشوة الانتقام، وربما ظنوا أن التاريخ منحهم لحظة تصفية الحساب. أما النبي ﷺ فدخل مكة دخول العبد الشاكر، لا دخول الجبار المنتقم. دخلها وقد دانت له، لكنه لم يدن له هواه؛ وفتحها الله عليه، لكنه لم يفتح على نفسه باب البغي؛ ووقف أمام من حاربوه وآذوه وأخرجوه، فلم يجعل القدرة ذريعةً إلى الثأر، بل جعلها موضعاً لإظهار رحمة الرسالة.

وهنا ينبغي أن نتأمل الفرق بين العفو حين يكون ضعفاً، والعفو حين يكون قمة القوة. فقد يعفو العاجز لأنه لا يملك العقوبة، فيكون عفوه صورةً من صور الاضطرار، أما عفو النبي ﷺ فكان عفو القادر، عفو من يملك أن يعاقب، لكنه يرى أن الرسالة أكبر من انتقام النفس، وأن الهداية أعظم من شفاء الغيظ، وأن فتح القلوب أرفع من كسر الرقاب. لذلك كان العفو في سيرته ليس تنازلاً عن الحق، بل وضعاً للحق في مقامه الأعلى حين تكون المصلحة في الرحمة، وحين يكون المقصود إصلاح الإنسان لا إذلاله.

إن هذه العظمة الساجدة لا تظهر في الفتح وحده، بل تظهر في كل مقامٍ من مقاماته ﷺ. تظهر في الليل حين يقوم بين يدي ربه، وقد غفر الله له ما تقدم

من ذنبه وما تأخر، فيطيل القيام حتى تتفطر قدماه، فلا يتعامل مع فضل الله عليه باعتباره سببًا للاسترخاء، بل سببًا لمزيد الشكر. وتظهر في دعائه، وفي بكائه، وفي خوفه على أمته، وفي لجوئه إلى ربه، وفي شهوده الدائم أن الأمر كله لله. لقد كان أعرف الناس بربه، ولذلك كان أشد الناس عبادةً له؛ لأن المعرفة الصادقة لا تُنتج جرأةً على الله، بل خشيةً منه، ولا تُنتج اغترارًا بالمنزلة، بل شكرًا عليها.

ولذلك لا يمكن أن نفصل بين عظمة النبي ﷺ وعبادته؛ فمن قرأ قيادته دون قيامه، وفهم فتوحه دون سجوده، وتأمل أثره في التاريخ دون فقره إلى الله، فقد رأى بعض المشهد وفاته قلبه. إن السر ليس في أنه قاد فانتصر فحسب، بل في أنه انتصر ولم يتغير على الله؛ والسر ليس في أنه علّم فآثر فحسب، بل في أنه بقي أول المتعبدین بما علّم؛ والسر ليس في أنه ملك القلوب فحسب، بل في أنه لم يجعل ملك القلوب غايةً لنفسه، بل سبيلًا إلى هدايتها.

إن التاريخ مليء بمن غلبوا أعداءهم، ولكنه فقيرٌ بمن غلبوا أنفسهم عند غلبة أعدائهم.

والتاريخ يعرف فاتحين دخلوا المدن، ولكنه نادرًا ما يعرف فاتحًا دخل المدينة وفي قلبه من الخضوع لله أكثر مما في يده من القوة. والتاريخ يعرف زعماء صنعوا أمجادًا، ولكنه لا يعرف في مقامه ﷺ من صنع الله به أمةً ثم بقي يقول للناس بلسان التوحيد: إن الفضل كله لله.

هذه ليست عظمة نفسية فقط، بل عظمة إيمانية؛ لأن أصلها أن النبي ﷺ كان يرى الدنيا في حجمها الحقيقي، فلا تضخمها عينه، ولا تغره زينتها، ولا

يخدعه إقبالها. والدنيا إذا صغرت في قلب العبد لم تستطع أن تفسده إذا دخلت يده؛ أما إذا كبرت في قلبه أفسدته ولو حُرِمَ منها، لأنه يظل يعبدها بالطلب والحسرة ولو لم يملكها. والنبي ﷺ كان أزهد الناس في الدنيا، لا زهد العاجز الذي لم يجد، بل زهد العارف الذي أبصر حقيقتها، وعلم أنها مزرعة الآخرة وممر الابتلاء، لا دار القرار.

ولذلك لم تكن العظمة المحمدية محتاجةً إلى مظاهر الملك كي تثبت نفسها. كان يستطيع لو شاء الله له أن يكون نبياً ملكاً، ولكنه اختار مقام العبد الرسول. وهذا الاختيار ليس تفصيلاً في السيرة، بل بيان عميق لطبيعة الرسالة الخاتمة؛ أن مركزها ليس صناعة سلطانٍ منفصلٍ عن الهداية، بل صناعة عبوديةٍ تحكم السلطان إذا وُجد، وتركى النفس إذا قويت، وتردّ الحياة كلها إلى الله. لقد كان ﷺ قائداً، لكنه لم يكن أسير صورة الملك؛ وكان مطاعاً، لكنه لم يكن مفتوناً بالطاعة؛ وكان مهيباً، لكنه لم يكن متكبراً؛ وكان محبوباً، لكنه لم يتخذ من الحب مملكةً شخصية.

إنك ترى في حياته ﷺ تواضعاً لا تصنعه المجاملة، بل تصنعه المعرفة بالله. والتواضع هنا ليس خفضاً مصطنعاً للجناح أمام الناس، ولا أسلوباً اجتماعياً لإظهار اللين، بل حقيقةً راسخة تنبع من العلم بأن الكبرياء لله وحده، وأن العبد مهما علا فهو عبد، وأن أشرف الناس ليس من رأى لنفسه حق التعالي، بل من عظم أمر الله، وخفض جناحه للمؤمنين، ورحم الضعفاء، وعرف أن قربته من الله لا يبرر له احتقار أحدٍ من خلق الله.

وكان من آثار هذا التواضع أنه ﷺ لم يجعل بينه وبين الناس جدارًا من الغموض المتعالي. كان قريبًا، يسمع، ويجيب، ويواسي، ويزور، ويقبل المعذرة، ويجلس حيث ينتهي به المجلس، ويعامل الناس بأقدارهم من غير أن يبيع الحق لأحد. وهذه القربى لم تنقص هيئته، بل زادت؛ لأن الهيبة الحقّة ليست تلك التي يصنعها التباعد المصطنع، بل التي تتبع من الصدق والطهر والعدل والرحمة. كم من إنسانٍ يبتعد عن الناس ليحفظ صورته، لأنه يعلم أن القرب يكشف نقصه؛ أما النبي ﷺ فكان قربه يزيد صورته صفاءً، لأن حقيقته أعظم من كل صورةٍ متخيلة.

وهنا تتجلى مفارقة دقيقة:

كان ﷺ أشد الناس تواضعًا، ومع ذلك كان أهيّهم.

وكان ألين الناس جانبًا، ومع ذلك كان أقواهم حضورًا.

وكان أقرب الناس إلى أصحابه، ومع ذلك لم تسقط مكانته في قلوبهم.

وهذا لأن هيئته لم تكن مبنيةً على الاستعلاء، بل على النبوة والصدق

والكمال الأخلاقي، ولأن قربه لم يكن ابتداءً، بل رحمةً مؤدبةً بالحق.

إن الإنسان في العادة إذا كثرت اختلاطه بالناس كثرت عثراته في أعينهم، لأن

الخلطة تكشف الطبائع، وتخرج ما يستتر خلف الكلام المنمق. أما النبي ﷺ

فقد خالط الناس في تفاصيلهم، ثم لم يزد ذلك في قلوب أصحابه إلا حبًا

وتعظيمًا؛ لأنهم لم يجدوا في قربه فجوةً بين الدعوة والسلوك، ولا بين الخطاب

والحياة، ولا بين الظاهر والباطن. كانوا يرون منه في الخلوة والقرب ما

يصدق ما يسمعون في الوحي من الأمر بالرحمة والصدق والعدل والحلم.

ولذلك نستطيع أن نقول إن العظمة النبوية لم تكن عظمة مسرح، بل عظمة حياة.

ليست لقطةً عاليةً في لحظةٍ تاريخية، بل نسقٌ ممتد في كل الأوقات.

ليست موقفًا منسوبًا إلى المجد، بل خلقٌ جارٍ في التفاصيل.

ليست خطبةً عن التواضع، بل تواضعٌ يعيش بين الناس.

وليست دعوةً إلى الرحمة، بل رحمةٌ تُرى وتُلمس وتُؤنس.

ومن هنا نفهم لماذا كان أصحابه يحبونه ذلك الحب الذي لا يشبه محبة الأتباع لقادتهم، ولا إعجاب التلاميذ بمعلميهم، ولا تعلق الجنود بأمرهم، بل كان حبًا مركبًا من الإيمان والتوقير والمعرفة والقرب والامتنان؛ حبًا رأى صاحبه ليس فقط في علو مقامه، بل في صدق معاملته، وحسن رعايته، وتمام رحمته. لقد أحبوه لأنه رسول الله، وأحبوه أيضًا لأنهم رأوا في حياته ما يجعل القلوب تستحي أن لا تحبه؛ رأوا منه صدقًا لا يتكلف، ورحمةً لا تضعف، وهيبةً لا تقسو، وتعليمًا لا يتعالى، وحرزًا على الناس لا يصطنع، وخوفًا على الأمة لا يفتنر.

غير أن هذا الحب العظيم كان محكومًا بالتوحيد، فلم يكن النبي ﷺ يرضى لأمته أن تجعل محبته ذريعةً إلى الغلو، ولا أن تحول تعظيمه إلى خروجٍ عن حد العبودية، بل علّمهم أن يحبوه كما أمر الله، وأن يتبعوه كما أمر الله، وأن يصلّوا عليه كما أمر الله، وأن يوقروه بلا إفراطٍ ولا تفريط. فالمحبة النبوية الحقّة تحفظ حقين: حق الله في التوحيد، وحق رسوله ﷺ في الطاعة والتوقير والمحبة. ومن ضيّع أحد الحقين اختل ميزانه؛ فمن جفّ في حق النبي ﷺ نقص أدبه، ومن غلا فيه بما لا يليق إلا بالله نقص توحيده.

وهذه الوسطية ليست برودةً في المحبة، بل صفاؤها. فالحب إذا لم يهتد بالوحي قد يظلم محبوبه من حيث يظن أنه يعظمه، وقد يرفعه إلى مقام لم يرضه هو لنفسه، وقد ينسب إليه ما نهى عنه. أما الحب المهتدي فإنه يحب النبي ﷺ كما يحب هو أن يُحَب: عبدًا رسولًا، مصطفىً مكرمًا، مطاعًا متبعًا، لا معبودًا من دون الله، ولا شريكًا في شيءٍ من خصائص الربوبية. وهنا يكون التعظيم الحقيقي أعمق وأطهر؛ لأنه تعظيمٌ يوافق الوحي، لا عاطفةً منفلةً عن حدوده.

ومن أعظم ما يورثه هذا الفهم في القلب أن يرى المسلم أن الاتباع ليس قيدًا على المحبة، بل هو شكلها الصادق. فمن أحب النبي ﷺ ولم يطعه، فقد جعل المحبة دعوى بلا برهان. ومن أكثر من مدحه ثم خالف هديه في أخلاقه، فقد أبقى المديح في اللسان ومنع أثره عن الحياة. ومن عظم اسمه ولم يعظم سنته، فقد وقف عند الباب ولم يدخل. أما الحب الكامل على قدر طاقة العبد فهو أن يحيا الإنسان وفي قلبه شوقٌ إليه، وفي لسانه صلاةٌ عليه، وفي سلوكه أثرٌ من هديه، وفي ميزانه تقديمٌ لأمره على هوى النفس وعادات الناس.

إن العظمة التي بقيت ساجدةً تعلمنا أن الإنسان لا يُمتحن في ضعفه فقط، بل يُمتحن في قوته أيضًا. بل قد يكون امتحان القوة أشد؛ لأن الضعف يكشف حاجة الإنسان، أما القوة فتختبر صدقه في شهود هذه الحاجة. قد يدعو الإنسان الله في الخوف، فإذا أمن نسي؛ وقد يتواضع في الفقر، فإذا اغتنى استعلى؛ وقد يصبر في القلة، فإذا كثر حوله الناس ظن أنه صار شيئًا بنفسه. أما النبي ﷺ فكان في كل انتقالٍ من ضيق إلى سعة، ومن أذى إلى نصر، ومن قلة إلى

كثرة، أشد رسوخًا في العبودية، كأن التمكين عنده لم يكن انتقالًا إلى الترف، بل انتقالًا إلى شكرٍ أثقل ومسؤوليةٍ أعظم.

ولهذا فإن أعظم درسٍ سياسي وأخلاقي وروحي في سيرته أن التمكين لا يبرر فساد القلب. كم من دعواتٍ تبدأ مظلومةً، فإذا مكّن الله لأصحابها حملوا في تمكينهم بقايا أمراضهم القديمة، فانتقموا لأنفسهم، ووسّعوا سلطانهم، وتكلموا باسم الحق وفي داخلهم شهوة الغلبة. أما النبي ﷺ فكان التمكين عنده امتدادًا للرسالة لا انتقامًا للذات. لم يتغير ميزانه حين تغيرت موازين القوة؛ فالحق الذي دعا إليه في الضعف هو الحق الذي حكم به في القوة، والرحمة التي ظهرت في أيام الاستضعاف هي الرحمة التي ظهرت يوم الفتح، والتوحيد الذي كان ينادي به وهو مطارد هو التوحيد الذي جعله أساس الأمة وهو منصور.

وهذا الثبات من دلائل النبوة في السيرة؛ لأن المدّعين تتبدل أخلاقهم إذا تبدلت أحوالهم، ويظهر ما تخفيه النفوس عند التمكين، أما الصادق المؤيد بالوحي فيظل الحق عنده حقًا، لا يتغير بتغير مصلحته. لقد كان ﷺ قبل الفتح وبعد الفتح عبدًا لله، وقبل الدولة وبعد الدولة رسولًا، وقبل الكثرة وبعد الكثرة رحمةً، وقبل السلطان وبعد السلطان متواضعًا، كأن الأحداث الكبرى لم تزده إلا كشفًا لما كان مستقرًا في قلبه من صدق العبودية.

إن هذا المعنى وحده يكفي لإعادة بناء مفهوم القيادة في وعينا. فالقيادة في النموذج النبوي ليست قدرةً على تحريك الناس فقط، بل قدرةً على حمل الأمانة دون أن تفسد النفس. ليست مهارةً في إدارة الجموع فقط، بل تزكيةً

دائمةً للقلب حتى لا يرى الجموع ملكًا له. ليست صناعة مهابةٍ قاهرة، بل إقامة حقٍّ رحيم. ليست انتصارًا في الخارج فقط، بل انتصارًا على الداخل: على الكبر، والهوى، وحب الظهور، وشهوة الثأر، وطلب المحمدة، وفتنة الاتباع.

وهذا ما يجعل السيرة النبوية فوق كل نماذج القيادة الحديثة؛ فهي لا تبدأ من السؤال: كيف يؤثر القائد في الناس؟ بل من سؤالٍ أسبق: كيف لا تفسد نفس القائد وهو يؤثر في الناس؟ كيف يبقى عبدًا وهو مطاع؟ كيف يبقى رحيمًا وهو قوي؟ كيف يبقى عادلاً وهو قادر؟ كيف يبقى متواضعًا وهو معظم؟ كيف يبقى لله حين تتجه إليه العيون؟ هذه الأسئلة هي جوهر القيادة النبوية، وهي ما يفتقر إليه العالم حين يصنع قادةً أقوياء ولا يصنع قلوبًا مزكّاة تحمل القوة بأمانة.

إن محمدًا ﷺ لم يكن مجرد قائدٍ ناجح في التاريخ، بل كان قائدًا طهر معنى القيادة نفسها. جعل القيادة تكليفًا لا تشريفًا مجردًا، أمانةً لا غنيمة، خدمةً لا استعلاء، عدلاً لا هوى، رحمةً لا رخاوة، حزمًا لا قسوة، ومحاسبةً للنفس قبل محاسبة الناس. ولهذا كان أعظم القادة لأنه كان أعظم العباد؛ فالذي لا يخضع لله حقًا يخشى أن يجعل الناس خاضعين له بغير حق، والذي لا يعرف قدر نفسه أمام ربه يوشك أن يطلب من الناس ما لا يستحق.

وليس هذا خاصًا بالقيادة الكبرى وحدها، بل هو درسٌ لكل إنسانٍ في دائرته؛ فكل أحدٍ له نوع عظمةٍ قد تفسده: علمٌ يورثه الكبر، أو مالٌ يورثه البطر، أو مكانةٌ تجرّه إلى احتقار غيره، أو جمالٌ يفتنه، أو شهرةٌ تسكره، أو قبولٌ عند

الناس يجعله يراقبهم أكثر مما يراقب الله. والسيرة النبوية تقول لكل هؤلاء: قِسْ عَظَمَتَكَ بِمَقْدَارِ سَجُودِهَا، لَا بِمَقْدَارِ انْتِشَارِهَا؛ وَبِمَقْدَارِ مَا تَزِيدُكَ تَوَاضَعًا، لَا بِمَقْدَارِ مَا تَزِيدُكَ ظُهُورًا؛ وَبِمَقْدَارِ مَا تَجْعَلُكَ أَرْحَمَ بِالْخَلْقِ، لَا أَقْسَى عَلَيْهِمْ؛ وَبِمَقْدَارِ مَا تَرُدُّكَ إِلَى اللَّهِ، لَا مَا تَجْعَلُكَ وَاقِفًا عِنْدَ نَفْسِكَ.

إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ لَيْسَ مِنْ أَمْتَلَأَتِ الدُّنْيَا بِذِكْرِهِ، بَلْ مِنْ أَمْتَلَأَ قَلْبَهُ بِاللَّهِ. وَأَعْظَمَ الذِّكْرُ مَا كَانَ أَثَرًا لَطَاعَةِ اللَّهِ، لَا غِذَاءً لَغُرُورِ النَّفْسِ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ الذِّكْرَ الرَّفِيعَ، وَقَرَنَ اسْمَهُ بِالشَّهَادَةِ، وَأَمَرَ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ، وَرَفَعَ مَقَامَهُ فِي الْعَالَمِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ هُوَ ﷺ أَشَدَّ النَّاسِ بَعْدًا عَنْ طَلَبِ التَّعْظِيمِ لِنَفْسِهِ خَارِجَ حَدِّ الْعِبُودِيَّةِ. وَهَذِهِ مَفَارِقَةٌ لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا مَنْ عَرَفَ أَنَّ الرِّفْعَةَ الْحَقَّةَ عَطَاءٌ مِنَ اللَّهِ، لَا صِنَاعَةٌ غُرُورٍ مِنَ الْإِنْسَانِ.

وَلِذَلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَقْرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قِرَاءَةً وَجْدَانِيَّةً فَقَطْ، بَلْ قِرَاءَةً تَكْشِفُ أَنَّ رَفْعَ الذِّكْرِ جَاءَ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثَمَرَةً طَلَبِ ذَاتِيٍّ لِّلْمَجْدِ، بَلْ ثَمَرَةً اصْطِفَاءٍ وَرِسَالَةٍ وَعِبُودِيَّةٍ وَبِلَاغٍ. فَالذِّكْرُ الْمَرْفُوعُ الَّذِي يَأْتِي مِنَ اللَّهِ لَا يَفْسُدُ صَاحِبُهُ، لِأَنَّهُ مُحْفُوظٌ بِسِرِّ الْعِبُودِيَّةِ؛ أَمَّا الذِّكْرُ الَّذِي يَطَّارِدُهُ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ فَقَدْ يَكُونُ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ هَلَاكِهِ، لِأَنَّهُ يَجْعَلُهُ يَعْشِشُ تَحْتَ رَحْمَةِ عَيُونِ النَّاسِ، يَفْرَحُ بِقِيَامِهَا عَلَيْهِ، وَيَحْزَنُ بِانْصِرَافِهَا عَنْهُ، حَتَّى يَصِيرَ عَبْدًا لِّصُورَةٍ صَنَعَهَا عَنْ نَفْسِهِ.

أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَقَدْ حَرَّرَ النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ الصُّورِ كُلِّهَا، حَتَّى صَوْرَةَ الْعِظْمَةِ الْبَشَرِيَّةِ حِينَ تَنْفَصِلُ عَنِ اللَّهِ. لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ أَنْ يَصْنَعَ حَوْلَهُ هَالَةً تَمْنَعُ النَّاسَ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، بَلْ كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَدْخُلَهُمْ فِي نَوْرِ الْوَحْيِ. وَمَنْ هُنَا كَانَ كُلُّ

توقيرٍ له مشروعاً حين يقود إلى اتباعه، وكل حبٍّ له صادقاً حين يزيد التوحيد صفاءً، وكل ذكرٍ له مباركاً حين يرد القلب إلى الله، وكل كتابةٍ عنه نافعةً حين تجعل القارئ أعبد لله، وأصدق في محبته، وأقرب إلى سنته.

ولعلّ من ألطف ما تكشفه هذه العظمة الساجدة أن النبي ﷺ لم يكن محتاجاً إلى القسوة ليحفظ هيئته، ولا إلى التباعد ليحفظ مقامه، ولا إلى الغموض ليصنع تأثيره، ولا إلى الانتقام ليؤكد قوته، ولا إلى المظاهر ليبهرهن عظمته. كان مقامه محفوظاً بالله، وحقيقته أرفع من أن تحتاج إلى زخارف السلطان. وهذه هي العظمة الصافية: عظمةٌ لا تستعير بريقها من الخارج، بل يخرج نورها من الداخل؛ من صدقها، وعدلها، ورحمتها، وعبوديتها، واتصالها بالله.

إننا حين نقول: العظمة التي بقيت ساجدة، فإننا لا نعني السجود بوصفه حركةً في الصلاة فقط، مع أن السجود ذروة العبودية، بل نعني أن حياته كلها كانت في معنى السجود: خضوعاً لله، وانقياداً لأمره، وشكراً لنعمته، وإرجاعاً للفضل إليه، وانكساراً بين يديه، ورفضاً لأن تتخذ النفس من المقام سبباً للاستعلاء. كان ساجداً في قيادته، أي خاضعاً لله فيها؛ ساجداً في نصره، أي شاكراً غير مغتر؛ ساجداً في رحمته، أي لا يرحم بهوى بل بهدى؛ ساجداً في غضبه، أي لا يغضب لنفسه بل لله؛ ساجداً في تعليمه، أي لا يطلب به مجداً شخصياً بل هداية الخلق.

وهذه العبارة قد تكون مفتاحاً لفهم كل السيرة:

لقد سجدت عظمة محمد ﷺ لله، فلم تسجد لها نفسه.

ومن هنا جاءت سلامة النموذج المحمدي من كل تشوهات العظمة الأرضية. لا نرجسية القادة، ولا قسوة المنتصرين، ولا عزلة الزاهدين عن الناس، ولا جفاف الفقهاء إذا انفصل العلم عن الرحمة، ولا رخاوة العاطفيين إذا انفصلت الرحمة عن الحق، ولا ترف الملوك، ولا نزق الثائرين، ولا غرور المصلحين حين يرون أنفسهم أكبر من الناس. كان ﷺ فوق هذه التشوهات كلها؛ لأنه كان عبدًا لله قبل كل وصف، ومع كل وصف، وبعد كل وصف.

إن المسلم حين يتأمل هذا المعنى ينبغي أن يخاف على نفسه من كل عظمةٍ لا تسجد.

من علمٍ لا يسجد.

ومن قلمٍ لا يسجد.

ومن مالٍ لا يسجد.

ومن نفوذٍ لا يسجد.

ومن شهرةٍ لا تسجد.

ومن نصرٍ لا يسجد.

ومن مشروعٍ إصلاحيّ لا يسجد.

فكل نعمةٍ لا تتحني لله في قلب صاحبها قد تتحول إلى باب فتنة، وكل مقامٍ

لا يحرسه التواضع قد يصير هاويةً مزينة، وكل أثرٍ في الناس لا يذكر

صاحبه بفقره إلى الله قد يجعله يعبد أثره من حيث لا يشعر.

ولذلك كانت الصلاة على النبي ﷺ ليست مجرد لفظٍ يمر على اللسان، بل تربيةٌ مستمرة للقلب على أن يتصل بأعظم عبدٍ لله اصطفاه الله، وأن يتذكر أن الطريق إلى الله لا يمر عبر تضخم الذات، بل عبر الاتباع والخضوع

والمحبة المهددية. إنك كلما صليت عليه ﷺ شهدت أن الله رفع ذكره، وأنت لا تملك له نفعًا ولا مقامًا إلا أن تسأل الله أن يصلي ويسلم عليه، فكأن الصلاة عليه تربيك أنت أيضًا على أن الفضل من الله، وأن المقامات بيد الله، وأن محبة النبي ﷺ نفسها عبادة لله حين تكون كما شرع الله.

وهنا ندرك أن الكتابة عن النبي ﷺ لا ينبغي أن تُنتج فينا نشوة أدبية فقط، بل خشيةً ومراجعةً. فكل معنى نكتبه عنه يجب أن يسألنا: أين نحن منه؟ فإذا كتبنا عن تواضعه، فليست المسألة أن نحسن وصف التواضع، بل أن نخجل من كبرنا. وإذا كتبنا عن رحمته، فليست المسألة أن ننسج العبارة، بل أن نفتش عن قسوة في قلوبنا. وإذا كتبنا عن عفوهِ، فليست المسألة أن نرتب الموقف، بل أن نسأل عن أحقادٍ نربّيها باسم الكرامة. وإذا كتبنا عن عبادته، فليست المسألة أن نمدح قيامه، بل أن نحاسب نوم قلوبنا. وإذا كتبنا عن عظمتِهِ التي لم تفسده، فليست المسألة أن نعجب به فقط، بل أن نخاف من عظمةٍ صغيرةٍ أفسدتنا أو كادت.

إن السيرة مرآة قاسيةٌ برحمتها؛ لأنها لا تفضحنا لتكسرنا، بل لتردنا إلى الطريق. ترينا كم نحن بعيدون لا لنقنط، بل لنعرف الجهة. وتكشف نقصنا لا لنكره أنفسنا، بل لنزكيها. وتجعلنا نرى في النبي ﷺ المثال الأعلى لا لنستحيل نحن مثله، فهذا لا يكون، بل لنقتبس من هديه ما نستطيع، ونمضي خلفه على قدر ضعفنا، مستعينين بالله، موقنين أن شرف المسلم ليس في ادعاء الكمال، بل في صدق السير إلى الله على خطى أكمل الخلق ﷺ.

وفي نهاية هذا الفصل نستطيع أن نقرر أصلاً ثانياً من أصول هذا الكتاب: أن عظمة النبي ﷺ لم تكن عظمةً فوق العبودية، بل عظمةً صادرةً من العبودية؛ وأنه لم يكن عظيمًا رغم تواضعه، بل كان تواضعه من أعظم دلائل عظمته؛ وأنه لم يكن قويًا رغم رحمته، بل كانت رحمته هي الصورة الطاهرة لقوته؛ وأنه لم يكن قائدًا رغم سجوده، بل كان سجوده هو الذي حفظ قيادته من كل فساد.

فمن أراد أن يفهم محمدًا ﷺ، فليبدأ من هذا الباب: العظمة عنده لم تكن ارتفاع الذات، بل تمام الخضوع لله. والرفعة عنده لم تكن مفارقة الناس، بل هدايتهم ورحمة ضعفائهم. والنصر عنده لم يكن إعلان انتصار النفس، بل شكر المنعم. والقيادة عنده لم تكن امتلاك الأمة، بل خدمتها بالحق. والحب له لم يكن غلوًا فيه، بل اتباعًا له إلى الله.

هكذا بقيت العظمة ساجدة.

وهكذا ظلّ محمد ﷺ، في أعلى مقامات الاصطفاء، عبدًا لله، رسولاً من عنده، رحمةً للعالمين، وأسوةً للمؤمنين، وبرهانًا خالدًا على أن الإنسان لا تفسده العظمة إذا كان قلبه لله، وأن أشرف ما في النبي ﷺ أنه أعظم الخلق عبوديةً لربه، وأن كل من أراد أن ينجو من فتنة مقامه الصغير، فليسجد بقلبه حيث سجدت العظمة المحمدية: بين يدي الله وحده، لا شريك له.

## الفصل الثالث

### الرَّحْمَةُ الَّتِي لَا تُلْغِي الْحَقَّ

ليست الرحمة في السيرة النبوية عاطفةً رخوةً تقف عاجزةً أمام الباطل، ولا ليناً مطلقاً يذيب الحدود، ولا حناناً غامضاً يلغي التكليف، ولا شفقةً تفصل الإنسان عن مسؤوليته، بل هي رحمةٌ مؤمنة، مبصرة، هادية، مؤدبةٌ بالوحي، تعرف موضع اللين وموضع الحزم، وتفرّق بين الضعيف الذي يحتاج إلى احتضان، والمعتدي الذي يحتاج إلى ردع، والجاهل الذي يحتاج إلى تعليم، والمكابّر الذي يحتاج إلى إقامة الحجة، والمذنب الذي يحتاج إلى فتح باب التوبة، والمفسد الذي لا تُصان الحياة إلا بكفّ فسادهِ. ولهذا كانت رحمة رسول الله ﷺ من أكمل دلائل نبوته؛ لأنها لم تكن رحمة مزاجٍ بشريٍّ محدود، بل رحمة رسالةٍ جاءت من عند الله لتخرج الإنسان من الظلمات إلى النور.

إن من أكثر الأخطاء شيوعاً في قراءة الرحمة أن تُفهم بوصفها ضدّاً للحق، كأن الإنسان لا يكون رحيماً إلا إذا تنازل عن المبدأ، ولا يكون حازماً إلا إذا جفّ قلبه، ولا يكون عادلاً إلا إذا نقصت رفته، ولا يكون داعيةً إلى الخير إلا إذا حمل الناس على الحق حملاً قاسياً ينسى ضعفهم. أما النبي ﷺ فقد جمع ما تفرّق في غيره؛ كان أرحم الناس، ومع ذلك لم تكن رحمته هروباً من الحق، وكان أقوم الناس بالحق، ومع ذلك لم يكن قيامه به قسوةً ولا انتقاماً ولا غلظةً لنفسه. لقد كانت رحمته حقاً، وكان حقه رحمة، حتى إذا عفا عفا من مقام الرسالة، وإذا عاقب عاقب بميزان الشرع، وإذا صبر صبر لله، وإذا غضب

غضب الله، وإذا لان لان ليقرب القلوب من الهدى، وإذا حزم حزم ليحامي الحياة من الفساد.

قال الله تعالى في وصفه الشريف:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ).

وهذه الآية لا تصفه ﷺ بصفة عارضة، بل تكشف عن وظيفة الرسالة في أصلها؛ فهو رحمة لا بمعنى أنه جاء ليوافق أهواء الناس، بل لأنه جاء بما ينقذهم من أهوائهم، ورحمة لا لأنه تركهم كما هم، بل لأنه دعاهم إلى ما يحييهم، ورحمة لا لأنه ألغى الحساب والمسؤولية، بل لأنه دلهم على طريق النجاة قبل أن يقفوا بين يدي الله. فالرحمة النبوية ليست إلغاءً للآخرة، بل تذكيرٌ بها؛ وليست تسكيناً للضمير حتى ينام على الذنب، بل إيقاظٌ له حتى يرجع إلى الله؛ وليست مداينةً للواقع الفاسد، بل إصلاحٌ له بما أنزل الله.

ومن هنا نفهم أن رحمة النبي ﷺ أوسع من المعنى العاطفي الضيق؛ فهي رحمة الهداية، ورحمة التعليم، ورحمة التزكية، ورحمة التشريع، ورحمة العدل، ورحمة الجهاد المشروع حين يحمي المستضعفين ويردّ العدوان، ورحمة العفو حين يكون العفو أصلح، ورحمة العقوبة حين تكون العقوبة أعدل وأرحم بالمجتمع من ترك الفساد يستطيل. إن الرحمة إذا انفصلت عن الحكمة قد تتحول إلى باب ظلم؛ لأنها ترحم فرداً على حساب جماعة، أو ترحم مذنباً على حساب ضحيته، أو ترحم شهوة الإنسان على حساب آخرته، أو ترحم لحظة ضعفه فتتركه في ضعفٍ أطول. أما الرحمة النبوية فكانت حكيمة؛ لأنها ترى الإنسان في دنياه وآخرته، في لحظته ومصيره، في ألمه القريب ونجاته البعيدة.

ولذلك كان النبي ﷺ رحيماً لأنه لا يترك الإنسان فريسةً لنفسه.

رحيماً لأنه يقول للمذنب: ارجع إلى الله.

ورحيماً لأنه يقول للظالم: كفّ يدك.

ورحيماً لأنه يقول للمظلوم: لن نُترك وحدك.

ورحيماً لأنه يقول للغني: في مالك حق.

ورحيماً لأنه يقول للقوي: قوتك أمانة لا سوط.

ورحيماً لأنه يقول للضعيف: كرامتك محفوظة عند الله.

ورحيماً لأنه يقول للأمة: لا بقاء لكم بلا عدل، ولا طهر لكم بلا توبة، ولا

نجاة لكم بلا توحيد.

إن الرحمة التي تكتفي بمواساة الإنسان دون أن تهديه قد تخدّره، والرحمة التي تتركه في الخطأ باسم اللطف قد تخونه، والرحمة التي تخاف من إغضابه فلا تصارحه بما ينجيه ليست رحمةً كاملة، بل ضعفٌ مزين. أما النبي ﷺ فكانت رحمته صادقة؛ ولذلك كانت قادرةً على أن تقول للإنسان ما يحب وما يكره، لا من موقع التسلط، بل من موقع الشفقة على مصيره. فالطبيب الرحيم لا يترك الداء لأنه يخشى مرارة الدواء، والمربي الرحيم لا يترك النفس تتردى لأنه يخشى أن تتألم عند الإصلاح، والرسول الرحيم لا يترك الأمة للضياع باسم المجاملة.

وهذا بابٌ عظيم في فهم الدعوة:

أن الرحمة ليست في تخفيف الحق حتى يرضى الناس، بل في تقديم الحق بطريقةٍ تفتح لهم باب الرضا به. ليست الرحمة أن ننقص الدين ليقبله المزاج المعاصر، بل أن نحسن بلاغ الدين ونكشف جماله وحكمته وعدله حتى تعلم

القلوب أن ما جاء من عند الله هو النجاة. وكان النبي ﷺ أبلغ الناس في هذا؛ لم يكن يساوم على أصلٍ من أصول الوحي، ولم يكن يبيع الحق لمحبة الناس، ولم يكن يغلظ حيث يكفي البيان، ولم يكن يلين حيث يكون اللين تضييعاً للحدود. فاجتمع في دعوته ثبات الحق ورقة البلاغ.

وقد وصفه الله بقوله: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ).**

فاللين النبوي هنا ليس سياسةً اجتماعيةً مجردة، بل هو أثر رحمةٍ من الله؛ لينٌ لا يصدر عن ضعف الشخصية، بل عن قوة الرحمة، ولا يعني ترك التصحيح، بل يعني أن التصحيح حين يصدر من قلبٍ رحيم يدخل إلى النفوس من أبوابها. ومن تأمل الآية رأى أنها لم تقل: فبما مهارةٍ منك لنت لهم، ولا بما مجاملةٍ منك لنت لهم، بل **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ**؛ كأن اللين النبوي ليس طباعاً بشريةً فحسب، بل عطيةً ربانيةً تحفظ الدعوة من قسوة الدعاة، وتحفظ الناس من أن يُطردوا عن الحق بسبب غلظة حامله.

ومع ذلك فإن الآية نفسها لا تجعل اللين بديلاً عن القيادة ولا عن العزم، إذ يأتي بعدها الأمر بالمشاورة والعزم والتوكل، فيتضح أن الرحمة النبوية ليست رخاوةً إداريةً ولا تردداً في القرار، بل هي مناخٌ أخلاقيٌّ يحفظ الجماعة، ويجبر الكسير، ويستبقي القلوب، ثم إذا وضح وجه الحق مضى النبي ﷺ بعزمٍ متوكلٍ على الله. وهذا من أبدع ما في السيرة: لينٌ في المعاملة، وحزمٌ في المبدأ؛ مشاورةٌ لأصحابه، ثم عزمٌ عند القرار؛ رحمةٌ تحفظ القلوب، وقيادةٌ تمنع الجماعة من التفكك.

إن كثيراً من الناس إذا رحم ضعف، وإذا حزم قسا، وإذا استشار تردد، وإذا عزم استبد، وإذا أحب غالى، وإذا غضب جار. أما النبي ﷺ فكان ميزاناً كاملاً؛ يضع كل خلق في موضعه، فلا تتحول الرحمة إلى تسبب، ولا الحزم إلى عنف، ولا الشورى إلى فوضى، ولا العزم إلى استبداد، ولا المحبة إلى غلو، ولا الغضب إلى هوى. وهذا هو الكمال المحمدي: أن الأخلاق عنده ليست صفات متفرقة تتزاحم، بل نظام واحد يحكمه الوحي.

وقد كانت رحمته ﷺ تبدأ من رؤيته للإنسان؛ لم يكن ينظر إلى الناس كأرقام في مشروع، ولا كوقودٍ لمعركة، ولا كأتباعٍ يزيدون مجده، بل كنفوس مخلوقة لله، مبتلاة، محتاجة إلى الهداية، قابلة للتوبة، محاطة بالضعف والشهوة والخوف والجهل. ولهذا كان صبره على الناس عظيماً؛ لأن من يرى ضعف الإنسان يرفق به، ومن يعرف ثقل الطريق لا يحتقر المتعثرين فيه، ومن يعلم سعة رحمة الله لا يغلق أبواب الرجاء في وجوه التائبين.

ولكن هذا الرفق لم يكن يعني تسويةً بين الصادق والمكابر، ولا بين التائب والمصرّ، ولا بين الخطأ العارض والفساد المتعمد. كان ﷺ أرحم الناس بالمتعلم إذا أخطأ، وبالتائب إذا ندم، وبالضعيف إذا انكسر، وبالمؤمن إذا زلّ، ولكنه كان شديداً في أمر الله إذا انتهكت حرماته، لا لأن في قلبه قسوة، بل لأن الرحمة بالحق تقتضي حماية حدوده. فالذي لا يغضب الله حين تنتهك الحرمات ليست رحمته كاملة، لأنه يرحم المعتدي وينسى المعتدى عليه، ويرحم لحظة المخالفة وينسى مآلاتها في الأمة.

وهنا ينبغي أن نميز بين الغضب النفسي والغضب الرسالي.

الغضب النفسي يدور حول الذات: من أهانني؟ من خالفني؟ من نقص

قدري؟ من جرح كبريائي؟

أما الغضب الرسالي فيدور حول الحق: هل انتهكت حدود الله؟ هل ظلم

ضعيف؟ هل ضيّعت أمانة؟ هل لبّس على الناس دينهم؟

والنبي ﷺ كان أبعد الناس عن الانتقام لنفسه، وأعظم الناس قياماً لله إذا

انتهك الحق. وهذه من أشرف صور التوازن في سيرته؛ لأن من لا يغضب

نفسه قد يظنه الناس ضعيفاً، ومن يغضب لله قد يظنه الناس قاسياً، أما النبي

ﷺ فقد جمع الحلم الشخصي والحزم الشرعي، فعرف الناس أن نفسه

الشريفة لا تطلب تأرها، وأن الحق عنده ليس مجالاً للمساومة.

إن من أعظم ما تحتاجه الأمة اليوم أن تفرّق بين الرحمة التي تهدي، والرحمة

التي تميع؛ بين الرفق الذي يفتح القلوب للوحي، والرفق الذي يفتح أبواب

التنازل عن الوحي؛ بين الحلم الذي يضبط النفس، والبرود الذي يسكت عن

الباطل؛ بين الحزم الذي يحمي الحق، والقسوة التي تنتقم للنفس. والسيرة

النبوية هي المدرسة الأصفى في هذا كله؛ لأنها لا تقدم لنا تعريفات نظرية،

بل تقدم مواقف حية ترى فيها كيف يكون الإنسان رحيماً دون أن يفرط،

وحازماً دون أن يظلم، ومحباً دون أن يداهن، وصابراً دون أن يرضى

بالباطل.

ومن أعمق تجليات رحمته ﷺ رحمته بالمذنبين الذين لم يمت فيهم معنى

الرجوع. لم يكن يفتح للذنوب باب التبرير، ولكنه كان يفتح للتائب باب العودة.

وهذه دقة عظيمة؛ فالذنوب في ميزانه ليس شيئاً عادياً يمر بلا أثر، والتوبة

ليست شعارًا خفيًا يقال بلا انكسار، ومع ذلك لا يُطرد صاحب الذنب من رحمة الله إذا عاد صادقًا. إن النبي ﷺ لم يكن يربي مجتمعًا من المتظاهرين بالطهر، بل مجتمعًا يعرف أن الطهر الحقيقي ليس أن لا يخطئ الإنسان أبدًا، بل أن لا يجعل الخطأ وطنًا، وأن لا يحول الذنب إلى فلسفة، وأن لا يدافع عن المعصية كأنها حق، وأن يرجع إلى الله كلما زلّت قدمه.

وهذا من رحمة الشريعة نفسها؛ أنها لا تبني الإنسان على وهم العصمة، بل على حقيقة المجاهدة والتوبة. فالإنسان يضعف، لكنه لا يُترك لضعفه؛ ويذنب، لكنه لا يُقفل في وجهه باب الله؛ ويجهل، لكنه يُعَلَّم؛ ويتعثر، لكنه يُقام؛ وينكسر، لكنه لا يُهدر. والنبي ﷺ كان في ذلك رحمةً عملية؛ لا يبيس الناس من الله، ولا يهون عليهم أمر الذنب، بل يضعهم بين الخوف والرجاء، بين جدية المسؤولية وسعة المغفرة، بين جلال الأمر الإلهي وجمال الرحمة الإلهية.

ومن رحمته ﷺ كذلك أنه لم يكن يصنع من أخطاء الناس مادةً للتشهير، ولا من ضعفهم فرصةً للإذلال، بل كان يستر حيث يكون الستر إصلاحًا، ويعلم حيث يكون التعليم كافيًا، ويؤدب حيث يكون التأديب لازمًا، ويقيم الحق حيث لا يصح غير إقامة الحق. وهذه ليست عفويةً في التعامل، بل فقهٌ عميق بالنفس البشرية؛ فإن النفوس إذا أُهينت بغير حق ربما عاندت، وإذا فُضحت بلا حاجة ربما استمرت السقوط، وإذا عوملت بغلظةٍ في موضع التعليم ربما نفرت من الحق بسبب سوء حمله. فكان ﷺ يراعي الطريق إلى القلب دون أن يساوم على الغاية.

ولذلك كان الرفق عنده منطقاً تربوياً كبيراً، لا مجرد لطفٍ عابر. الرفق لا يعني أن الحقيقة تتغير، بل يعني أن طريق إيصالها ينبغي أن يكون حكيماً. الرفق لا يبذل الحرام حلاً، ولا الباطل حقاً، ولا الخطأ صواباً، ولكنه يجعل التصحيح أقرب إلى القبول، ويمنع صاحب الحق من أن يخلط الحق بفضاظته، ويعلم الداعية أن قسوة العبارة قد تحجب نور المعنى. وما أكثر الحقائق التي أفسدها حاملوها حين قدموها بقلوبٍ جافة، وما أكثر النفوس التي أقبلت على الحق حين رأت فيه نور الرحمة قبل أن تسمع حجته كاملة.

غير أن الرفق نفسه إذا انفصل عن الغيرة على الحق صار تدليلاً للنفس، ولذلك كان النبي ﷺ يعلم الأمة أن الرحمة ليست تعطيلاً للأحكام، ولا إسقاطاً للمسؤولية، ولا إزالةً للفروق بين الطاعة والمعصية. فالذي يريد رحمةً بلا تكليف يريد ديناً من صنع هواه، والذي يريد حزمًا بلا رحمة يريد حقاً منزوع الروح، وكلاهما بعيدٌ عن الهدى النبوي. لقد جاء ﷺ بدينٍ يزكي الإنسان لا يسحقه، ويحاسبه لا يقنطه، ويرحمه لا يتركه، ويأمره لا يحتقره، وينهاه لا يطرده من باب الرجاء.

ومن جمال الرحمة النبوية أنها كانت شاملة، لا انتقائيةً ضيقة. لم تكن رحمةً بالخواص دون العامة، ولا بالأقوياء دون الضعفاء، ولا بالمؤمنين في جماعتهم الداخلية مع الظلم لمن عداهم، بل كانت رحمةً منضبطةً بالحق تمتد إلى الإنسان من حيث هو مخلوقٌ لله، وإلى المؤمن من حيث هو أخٌ في الدين، وإلى الضعيف من حيث هو موضع رعاية، وإلى المخالف من حيث هو مدعوٌّ إلى الهداية لا مادةً للكراهية المجردة. فالنبي ﷺ لم يكن يحمل في قلبه شهوة

إهلاك الناس، بل كان يحزن على إعراضهم، ويدعو لهم، ويصبر على أذاهم، ويريد لهم النجاة.

وهذه الرحمة بالدعوة من أندر المقامات؛ لأن الداعية إذا طال عليه الأذى ربما تحولت دعوته إلى خصومة نفسية، فيبدأ يفرح بسقوط خصومه أكثر مما يفرح بهدايتهم، ويصير همه أن ينتصر عليهم لا أن ينقذهم، وأن يثبت خطأهم لا أن يفتح لهم باب الرجوع. أما النبي ﷺ فكان أوسع من هذه الضيقة البشرية؛ كان يرى خلف العناد نفوساً يمكن أن تهتدي، وخلف الأذى قوماً قد يخرج الله من أصلابهم من يعبده، وخلف المكابرة أبواباً من القدر لا يعلمها إلا الله. وهذا لا يعني أنه لم يواجه الباطل، بل يعني أنه واجهه بقلب نبيٍّ لا بقلب منتقم.

إنه ﷺ لم يكن يكره الناس لذواتهم، بل يكره الكفر والظلم والفساد؛ وهذه دقة عظيمة. فمن خلط بين الإنسان وباطله صار لا يريد له إلا الهلاك، ومن فرق بين الإنسان وما تلبس به من ضلال أحب له أن ينجو من ضلاله. والنبي ﷺ جاء ليخرج الناس من الظلمات، لا ليقرر أنهم ظلمات لا خروج منها. ولهذا كانت دعوته صبراً طويلاً، وبلاغاً متكرراً، وحلمًا واسعًا، وأملًا في هداية من بدا للناس بعيداً عن الهداية.

وفي الوقت نفسه لم تكن هذه الرحمة تعني أن الباطل يُترك ليهدم حياة الناس. فالرحمة بالناس تقتضي أحياناً منع من يفسد عليهم دينهم وأمنهم وأخلاقهم. ومن لا يفهم هذا يظن أن كل ردع يناقض الرحمة، مع أن ترك الظالم يظلم ليس رحمةً به ولا بالمظلوم، وترك المفسد يفسد ليس حلمًا بل خيانةً للأمانة،

وترك المجتمع بلا حدود ليس حرية بل تمهيدٌ لفوضى يأكل فيها القوي الضعيف. لذلك كانت الشريعة رحمةً لأنها تقيم الحدود بين الحق والباطل، وتحمي الضرورات، وتمنع العدوان، وتجعل الإنسان مسؤولاً عن أثر فعله في نفسه والناس.

والنبي ﷺ كان رحمةً في هذا كله؛ رحمةً حين يعلم، ورحمةً حين يحكم، ورحمةً حين يعفو، ورحمةً حين يمنع، ورحمةً حين يلين، ورحمةً حين يحزم. فليست الرحمة صفةً في جهة واحدة من فعله، بل هي الروح التي تسري في أفعاله المنضبطة بالوحي. ومن هنا نخطئ إذا بحثنا عن الرحمة في المواقف اللينة فقط، ونغفل أنها قد تكون كامنةً في الحزم العادل؛ كما أن الطبيب قد يقطع العضو الفاسد رحمةً بالجسد، وكما أن القاضي قد يعاقب الجاني رحمةً بالمجتمع والمجني عليه، وكما أن المربي قد يمنع المحبوب عما يهلكه رحمةً به.

وهذه الرؤية تعيد بناء تصورنا للأخلاق. فالخلق ليس عاطفةً مطلقة، بل حكمةٌ في موضع العاطفة؛ وليس الحزم قسوةً مطلقة، بل عدلٌ في موضع الحزم؛ وليس العفو فضيلةً دائماً إذا كان يضيّع حقاً أو يغري بظلم، وليس العقاب فضيلةً دائماً إذا كان انتقاماً أو تجاوزاً. أما النبي ﷺ فكان يضع كل شيء في موضعه، ولذلك كان خلقه عظيمًا؛ لأن العظمة ليست في كثرة الصفات الحسنة مجردة، بل في انتظامها تحت ميزانٍ صحيح.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

والخلق العظيم ليس صفةً مفردة، بل بناءً كامل؛ رحمة، وصدق، وحلم،

وعدل، وحياء، وشجاعة، وكرم، وزهد، ووفاء، وتواضع، وصبر، وحزم، وكلها داخلة في نظامٍ واحدٍ لا يطغى فيه خلقٌ على خلق. ومن أسرار هذا الوصف القرآني أنه لم يقل: إنك ذو خلق عظيم فقط، بل قال: **لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**، وكأن الخلق العظيم مقامٌ عالٍ ثابتٌ هو عليه ﷺ، لا حالة عارضة تزوره وتغادره. إنه على الخلق، مستعلٍ به على نزغات النفس، ثابتٌ عليه في اختلاف الأحوال، محكومٌ به في السلم والحرب، في البيت والمجتمع، في الدعوة والدولة.

ومن هنا نفهم أن الرحمة النبوية جزءٌ من هذا الخلق العظيم، ولكنها ليست رحمةً منفصلةً عن بقية الأخلاق. فهي رحمةٌ صادقة لأنها مع الصدق، وعادلة لأنها مع العدل، وحكيمة لأنها مع الحكمة، وقوية لأنها مع الشجاعة، وطاهرة لأنها مع الإخلاص. أما الرحمة إذا انفصلت عن هذه المنظومة فقد تصير ضعفاً، أو مDAHنةً، أو تبريراً، أو عاطفةً عمياء. ولذلك لا ينبغي أن نقطع رحمة النبي ﷺ من كليته الخلقية، بل نقرأها ضمن هندسة كاملة للشخصية المحمدية.

إن رحمة النبي ﷺ بلغت أرق مظاهرها في تعامله مع الضعفاء؛ لأن الضعيف يكشف حقيقة أخلاق القوي. فالإنسان قد يتلطف مع من يخافه، أو يكرم من يحتاج إليه، أو يحسن لمن يرجو منه نفعاً، لكن رحمته بالضعيف الذي لا يملك له ضرراً ولا نفعاً هي التي تكشف معدن قلبه. والنبي ﷺ كان رحيماً بمن لا يلتفت إليهم أهل الجاهلية: بالصغير، واليتيم، والمرأة، والخادم، والفقير، والغريب، والمستضعف، حتى أعاد ترتيب القيمة في المجتمع؛ فلم تعد الكرامة تابعةً للقوة والنسب والمال، بل للتقوى والإنسانية والحق.

وهذا التحول نفسه من أعظم وجوه الرحمة. فقد جاء ﷺ إلى مجتمع يزن الناس بموازين مختلة، فجعل ميزان الله هو الحاكم. لم يكتفِ بأن يواسي الضعفاء، بل غيّر النظام الأخلاقي الذي كان يسحقهم. وهذه رحمةٌ بنائيةٌ لا مجرد رحمةٍ وجدانيةٍ؛ لأنها لا تسمح دمة الضعيف ثم تترك أسباب ظلمه قائمة، بل تعيد بناء الوعي الذي أنتج الظلم أصلاً. لقد علّم الأمة أن الضعيف ليس هامشاً في المجتمع، بل موضع اختبارٍ لأخلاقه، وأن من لا يرحم الضعيف لا يفهم حقيقة القوة التي أرادها الله أمانةً لا طغياناً.

وكانت رحمته بالمرأة كذلك تحريراً لها من امتهان الجاهلية، لا تحريراً منفلاً من العبودية لله، بل تكريماً يردّها إلى منزلتها في شرع الله، ويحفظ إنسانيتها، ويصون حقها، ويجعل التعامل معها موضع خوفٍ من الله لا مجالاً لاستباحة القوة. وإذا أردنا أن نفهم عظمة النبي ﷺ في هذا الباب، فلا نقرأه بعين السجال الحديث وحده، بل نرده إلى أصل الوحي: أن الإنسان ذكراً كان أو أنثى عبدٌ لله، مكرّمٌ بالتكليف، مسؤولٌ عن عمله، محفوظ الكرامة بما شرع الله، وأن العلاقة بين الرجل والمرأة لا تبنى على صراعٍ للهيمنة، بل على ميثاقٍ ومسؤوليةٍ وسكنٍ ورحمةٍ وعدل.

وفي البيت النبوي تظهر الرحمة في أدق اختباراتهما؛ لأن البيت يكشف ما لا تكشفه المنابر. وقد كان ﷺ في بيته جميل العشرة، كريم النفس، رحيماً بأهله، لا يرى الرجولة قسوةً، ولا القيادة المنزلية استعلاءً، ولا القوامة إذلالاً، بل مسؤوليةً ورحمةً وحسن صحبة. وهذا بابٌ من أبواب السيرة ينبغي أن يُقرأ بعمق؛ لأن كثيراً من الناس قد ينجحون في أخلاق الخارج ويفشلون في أخلاق الداخل، يبتسمون للبعيد ويقسون على القريب، يوسعون الغرباء حلماً

ويضيّقون على أهلهم غضبًا، كأن البيت عندهم موضع سقوط التكلف لا موضع كمال الخلق. أما النبي ﷺ فكان كماله في بيته شاهدًا على أن الرحمة عنده ليست خطابًا عامًا، بل طبيعة مؤدبة بالوحي.

ومن أعظم صور الرحمة كذلك رحمته بالأطفال؛ لأن الطفل لا يفهم التعقيدات الاجتماعية، لكنه يفهم حرارة القلب، ويعرف من يرحمه ومن يزره وجوده. كان ﷺ يفتح في الأمة باب الحنان المنضبط، ويعلم أن الصغير لا يُربى بالقسوة المجردة، وأن الرحمة به ليست ضعفًا في الرجولة، بل كمال في الفطرة. وفي عالم ظن فيه بعض الناس أن الهيبة لا تقوم إلا على الجفاف، جاءت السيرة النبوية لتقول إن القلب الرحيم أقدر على التربية من القلب القاسي، وإن الصغير الذي يذوق الرحمة يتعلم معنى الرحمة قبل أن يحفظ تعريفها.

بل امتدت رحمته ﷺ إلى الحيوان، في دلالة عميقة على أن الرحمة عنده ليست موقفًا اجتماعيًا انتخابيًا، بل أصل في النظر إلى خلق الله. فالذي يرحم الحيوان لا لأنه ينتظر منه شكرًا، ولا لأنه يزيد وجاهته، بل لأنه مخلوق لله، قد أدرك معنى الأمانة في الأرض. ومن هنا نرى أن الرحمة النبوية وسّعت حس الإنسان المسلم، فلم يعد يرى القوة إذنًا بالإيذاء، ولا الملكية إذنًا بالقسوة، ولا اللسان العاجز عن الشكوى سببًا لإهمال حق المخلوق. وهذا يربي القلب على أن الرحمة ليست علاقة منفعة، بل عبودية لله تظهر في طريقة التعامل مع خلقه.

غير أن أسمى الرحمة كلها رحمته ﷺ بأمته في أمر آخرتها. فقد كان يحمل همّ نجاتها، لا همّ راحتها الدنيوية فقط. وهذه مرتبة من الرحمة لا يفهمها من اختزل الإنسان في لذته العاجلة؛ فإن أرحم الناس بك ليس من يتركك لما تهوى، بل من يدلك على ما ينجيك. والنبي ﷺ كان يريد لأمته أن تنجو من النار، وأن تقوم لله، وأن تحمل الرسالة، وأن لا تضل بعد الهدى، وأن لا تتبع سنن الهالكين، وأن لا تفتنها الدنيا، وأن لا يأكل قوياها ضعيفها. كان خوفه عليها خوف نبي يعلم خطورة الطريق، لا خوف قائد على مشروعه الشخصي.

ولهذا فإن محبته لأمته لم تكن ترفاً عاطفياً، بل قياماً بالدعوة، وتعليماً، وتحذيراً، وتبشيراً، وتركياً، وجهاداً، وصبراً. كان يدعوهم إلى الجنة، ويمنعهم من طرق النار، ويحب لهم الخير، ويغضب لهم إذا ظلموا، ويغضب عليهم إذا ظلموا، لأن الرحمة الحقيقية لا تجامل المحبوب حين يهلك نفسه أو يهلك غيره. وهنا تبلغ الرحمة كمالها: أن تحب الإنسان حباً يجعلك تريد نجاته من هواه، لا موافقته على هواه.

ومن هنا نعرف لماذا لا يجوز أن تتحول الرحمة في خطابنا إلى شعارٍ منفصلٍ عن الوحي. فالرحمة التي لا تعرف الآخرة ناقصة، والرحمة التي لا تعرف التوحيد ناقصة، والرحمة التي لا تعرف العدل ناقصة، والرحمة التي لا تعرف التوبة ناقصة، والرحمة التي لا تعرف الحدود ناقصة. أما الرحمة النبوية فهي كاملة لأنها موصولة بالله؛ تبدأ من معرفة الخالق، وتتمّ بفهم الإنسان، وتنتهي إلى هدايته في الدنيا والآخرة.

إننا حين نقول إن النبي ﷺ رحمة، فلا نعني أنه جاء ليريح الإنسان من ثقل التكليف، بل جاء ليخرجه من عبودية الهوى إلى كرامة التكليف. ولا نعني أنه جاء ليؤكد للناس أن كل طريق يختارونه مقبول، بل جاء ليهديهم إلى الصراط المستقيم. ولا نعني أن رحمته تلغي الجهاد والحدود والأمر والنهي، بل تعطي هذه المعاني كلها مكانها الصحيح، فتمنعها من أن تتحول إلى عنفٍ أو ظلمٍ أو هوى، كما تمنع الرحمة من أن تتحول إلى ميوعةٍ وتفريط.

وهذا المعنى ضروري في زمنٍ صار فيه كثيرون يريدون من الدين أن يكون رحمةً بلا أمر، ومحبةً بلا حق، وقبولاً بلا تمييز، وسلاماً بلا عدل، وتسامحاً بلا عقيدة، وكأن الرحمة لا تكتمل إلا إذا فرغت من مضمونها الإلهي. أما الرحمة النبوية فهي رحمةٌ لها عقيدة، ولها قبلة، ولها صراط، ولها ميزان، ولها غاية؛ إنها رحمةٌ تريد أن يدخل الإنسان في طاعة الله، لا أن ينام مطمئناً خارجها.

ومن ناحيةٍ أخرى، يخطئ من يجعل الحق قاسياً في ذاته، كأن الدين لا يثبت إلا بالغلظة، وكأن الهيبة لا تكون إلا بالجفاء، وكأن المحافظة على الحدود تقتضي إغلاق أبواب الرفق. وهذا أيضاً خلاف الهدي النبوي؛ فالحق في أصله رحمة، والوحي في جوهره هداية، والدعوة في حقيقتها إنقاذ، ولا يجوز لحامل الحق أن يجعل طبعه الغليظ جزءاً من الدين، أو أن يستتر عجزه عن الرحمة باسم الغيرة، أو أن يخلط بين حدة نفسه وصلابة المبدأ. لقد كان النبي ﷺ أصلب الناس في الحق، ومع ذلك كان أرحم الناس بالخلق، فمن زعم أنه على هديه فليجمع ما استطاع بين الأمرين، لا أن يأخذ الحزم ويترك الرحمة، أو يأخذ الرحمة ويترك الحق.

وهنا نصل إلى قاعدة هذا الفصل:

**الرحمة النبوية ليست بديلاً عن الحق، بل هي الطريقة الأكمل لحمله.**

فمن حمل الحق بلا رحمة شوّه صورته في أعين الناس، ومن حمل الرحمة بلا حق أضاع معناها، ومن جمع بينهما اقترب من الهدى النبوي على قدر صدقه. إن الحق يحتاج إلى قلبٍ رحيم حتى لا يتحول في يد صاحبه إلى عصا نفسية، والرحمة تحتاج إلى حقٍ يحكمها حتى لا تتحول إلى استجابة لهوى الناس. والنبى ﷺ هو الميزان الأعلى في هذا الجمع.

ولذلك ينبغي للكاتب حين يكتب عن رسول الله ﷺ أن يحذر من اختزال رحمته في صورٍ بكائيةٍ رقيقة، كما يحذر من اختزال شريعته في صورٍ صارمةٍ جافة. فالسيرة أوسع من هذا الاختزال؛ فيها دمة الرحمة وسيف العدل، فيها لين التعليم وحزم الحكم، فيها العفو عند المقدرة والقيام لله عند انتهاك الحرمات، فيها حزن الضعيف وردع الظالم، فيها دعاء الهداية لمن يُرجى له الخير ومواجهة من يصد عن سبيل الله. وكل ذلك داخلٌ في الرحمة إذا وُضع في موضعه، وخارجٌ عنها إذا دخله الهوى أو الظلم.

إن محمداً ﷺ لم يكن رحيماً لأنه ترك الناس كما وجدهم، بل لأنه غيرهم بالوحي.

لم يكن رحيماً لأنه خفف عليهم الحقيقة، بل لأنه حملها إليهم بأصفى بيان وأرحم قلب.

لم يكن رحيماً لأنه ألغى الخطيئة، بل لأنه فتح باب التوبة.

لم يكن رحيماً لأنه ترك الظلم، بل لأنه حارب الظلم.

لم يكن رحيماً لأنه منع الألم كله، بل لأنه جعل للألم معنى، وللابتلاء صبراً، وللذنب مخرجاً، وللضعف سنداً، وللموت وعداً، وللحياة غاية.

وهكذا نرى أن الرحمة النبوية ليست صفةً واحدةً في قائمة السمائل، بل هي هندسةٌ كاملةٌ لعلاقة النبي ﷺ بالعالم: علاقته بالمؤمنين رحمة تربية، وبالمذنبين رحمة توبة، وبالضعفاء رحمة نصرة، وبالأطفال رحمة فطرة، وبالنساء رحمة كرامة وعدل، وبالمخالفين رحمة دعوة، وبالأمة رحمة هداية، وبالحق رحمة صيانة، وبالكون رحمة أمانة.

وفي نهاية هذا الفصل نقول: إن من أراد أن يفهم رحمة النبي ﷺ فليتجاوز المعنى السطحي للين، وليدخل إلى عمقها الرسالي؛ فهي رحمةٌ تعرف أن الإنسان مخلوقٌ للآخرة، وأن الدنيا دار ابتلاء، وأن الوحي هداية، وأن الشريعة رحمة، وأن الحق إذا قُدِّمَ بقلبٍ رحيمٍ أقبلت عليه النفوس السليمة، وأن الباطل إذا تُرك باسم الرحمة عاد على الناس بقسوةٍ أشد.

لقد كان ﷺ رحمةً لا تُلغي الحق، وحقاً لا يجفف الرحمة.

كان رقيقاً بلا ضعف، حازماً بلا قسوة، عفوياً بلا تفريط، معلماً بلا تعالٍ، قائداً بلا استبداد، محباً بلا مDAHنة، غاضباً لله بلا هوى، مشفقاً على الناس بلا خضوعٍ لباطلهم.

وهذا هو الكمال الذي تعجز عنه النفوس غير المؤدبة بالوحي: أن يجتمع القلب الكبير مع الميزان المستقيم.

ومن هنا يتعلم المسلم أن رحمته بالناس لا تكتمل حتى يريد لهم الحق، وأن قيامه بالحق لا يصفو حتى يحمله إليهم برحمة، وأن أقرب الناس إلى هدي

النبي ﷺ ليس من يكثر الكلام عن الرحمة وهو يضيّع الشرع، ولا من يكثر الكلام عن الشرع وهو يجرح الخلق، بل من يجعل الوحي حاكمًا على قلبه ولسانه ويده، فيرحم حيث تكون الرحمة هداية، ويحزم حيث يكون الحزم عدلًا، ويعلم أن رسول الله ﷺ لم يكن رحمةً للعالمين لأنه وافق العالمين، بل لأنه جاءهم من عند رب العالمين بما ينقذهم في الدنيا والآخرة.

## الفصل الرابع

### الْقُوَّةُ الَّتِي لَمْ تَتَحَوَّلْ إِلَى بَطْشٍ

ليست القوة في السيرة النبوية اندفاعاً غريزياً، ولا غلبةً عاريةً من الأخلاق، ولا قدرةً تُستعمل لمجرد الإخضاع، ولا سيفاً يبحث عن رقاب الناس ليؤكد وجوده، بل هي قوةٌ مؤمنة، محكومةٌ بالوحي، مؤدبةٌ بالرحمة، مضبوطةٌ بالعدل، لا تتحرك إلا في موضعها، ولا تتجاوز حدها، ولا تنسى أن الله تعالى هو الذي يملك الأمر كله، وأن الإنسان مهما امتلك من أسباب القدرة فهو عبدٌ مسؤول، لا ربٌّ مطلق التصرف، ولا مالكٌ لأرواح الناس وكراماتهم.

وهذا من أعظم ما يميز القوة المحمدية: أنها لم تكن قوةً تستمد معناها من غلبة العدو فقط، بل من غلبة النفس قبل العدو، ومن القدرة على ضبط اليد حين تستطيع أن تبطش، ومن حفظ الميزان حين تتاح للنفس فرصة الثأر، ومن إقامة الحق دون أن يدخل في الحق شيءٌ من شهوة الانتقام. فالقوة عند النبي ﷺ لم تكن خروجاً من الأخلاق، بل كانت امتحاناً أعلى للأخلاق؛ لأن الإنسان لا يظهر معدنه في ضعفه وحده، بل يظهر أكثر حين يقدر، وحين يكون القرار بيده، وحين يستطيع أن يرد الإساءة مضاعفة، ثم يمنعه الوحي والعدل والرحمة من أن يظلم.

إن كثيراً من الناس يظنون أن الرحمة لا تظهر إلا في الضعف، وأن القوة لا تستقيم إلا بالقسوة، وأن الحزم لا يثبت إلا إذا كسر ما حوله، وأن الهيبة لا

تقوم إلا على الخوف، لكن السيرة النبوية تقلب هذا الفهم من جذوره؛ فقد كان رسول الله ﷺ قويًا، بل كان أكمل الناس شجاعةً وثباتًا، ومع ذلك لم تكن قوته مرعبةً للضعفاء، ولا جارحةً للمستضعفين، ولا مفتوحةً على الهوى، بل كانت ملاذًا للمظلوم، وردعًا للظالم، وسياجًا للحق، وحراسةً للرحمة من أن تُداس بأقدام المعتدين.

ومن هنا ينبغي أن نقرأ القوة في حياته ﷺ لا بوصفها صفةً عسكريةً فقط، بل بوصفها نظامًا أخلاقيًا كاملاً. فهناك قوة الإيمان، وقوة الصبر، وقوة الحلم، وقوة القرار، وقوة البيان، وقوة الثبات، وقوة العفو، وقوة الجهاد، وقوة بناء الأمة، وقوة احتمال الأذى، وقوة ضبط النفس عند الغضب، وقوة البقاء على الحق حين يكثر المخالفون. وكل هذه القوى كانت تجتمع في شخصه الشريف اجتماعًا لا يطغى فيه نوعٌ على نوع، ولا يتحول فيه الحزم إلى قسوة، ولا اللين إلى ضعف.

لقد مكث ﷺ في مكة يدعو إلى الله، ويؤذى، ويكذب، ويُحاصر، ويرى أصحابه يُعذَّبون، ومع ذلك لم تتحول الدعوة في تلك المرحلة إلى انفجارٍ نفسيٍّ أعمى؛ كان الصبر قوةً، لا عجزًا، وكان احتمال الأذى تربيةً، لا قبولًا بالباطل، وكان ضبط النفس إعدادًا للأمة، لا استسلامًا للظلم. وهذا معنى عميق؛ فليست القوة دائمًا في أن تضرب، بل قد تكون القوة في أن تصبر حين يكون الصبر أمر الله، وأن تكفّ حين يكون الكفّ حكمةً ووحياً، وأن لا تسمح للغضب المشروع أن يسبق الإذن المشروع.

إن النفس البشرية إذا ظلمت أحبت أن تختصر الطريق إلى ردّ الفعل، وأن تجعل من ألمها دليلاً على صواب اندفاعها، وأن تسمي ثورتها الداخلية قوة، ولو خالطها الهوى. أما النبي ﷺ فقد كان يتلقى أذىً عظيمًا، ولكنه لم يجعل الألم قائدًا للقرار، بل جعل الوحي قائدًا للألم. لم يكن صبره فراغًا من الشجاعة، بل كان أرقى وجوه الشجاعة؛ لأن أشجع الناس ليس من يقدر على البطش فقط، بل من يقدر على نفسه حين تغلي، ومن يحفظ أمر الله حين تضغط عليه الجراح، ومن لا يسمح للمحنة أن تخرجه من ميزان الرسالة.

ثم جاءت المدينة، وجاء الإذن بالدفاع والجهاد، لا بوصفه انتقالًا من رحمة إلى قسوة، بل بوصفه انتقالًا من صبرٍ مأمورٍ به إلى قوةٍ مأذونٍ بها، ومن احتمال الأذى حين كانت الحكمة في الاحتمال إلى ردّ العدوان حين صار ردّه حفظًا للدين والجماعة والإنسان. فالقتال في السيرة ليس انفصالًا عن الرحمة، بل صورة من صور الرحمة حين لا تُحمى الحياة إلا بدفع من يريد إفسادها، ولا يُحفظ المستضعفون إلا بمنع من يستبيحهم، ولا تقوم حرية الإيمان إلا بكفّ الذين يفتنون الناس عن دينهم.

وهنا يظهر الفرق الجوهرى بين القوة النبوية والقوة الجاهلية. القوة الجاهلية تقاتل للعصبية، أو الغنيمة، أو الثأر، أو توسيع سلطان الذات والقبيلة.

أما القوة النبوية فتقاتل في سبيل الله، وتخضع لحدود الله، وتتقيد بأخلاق الله التي شرعها لعباده، ولا تجعل الحرب مجالًا لانفلات الوحش الكامن في الإنسان. ولهذا لم يكن الجهاد في الإسلام عنفًا مقدسًا بالمعنى المنفلت، بل كان عبادة ذات شروطٍ ومقاصد وحدود، ينضبط فيها السلاح بما ينضبط به

اللسان والقلب: إخلاصًا لله، وعدلاً في الفعل، وتركًا للعدوان، ورعايةً للعهود، وحفظًا للكرامات ما أمكن، وامتناعًا عن الغدر والتمثيل وكل ما يخرج القوة من كونها أمانةً إلى كونها شهوة.

إن النبي ﷺ لم يطلق القوة من عقالها، بل أدخلها في العبودية. وهذه عبارة ينبغي أن تكون أصلًا في فهم هذا الباب: **القوة إذا لم تدخل في العبودية دخلت في الطغيان**. فالإنسان القوي بلا عبودية لله قد يظن أن قدرته برهان أحقيته، وأن غلبته دليل فضله، وأن ضعف غيره إذن باستباحته. أما حين تدخل القوة في العبودية فإنها تفهم نفسها بوصفها أمانةً وسؤالًا ثقيلًا: لماذا أُعطيت هذه القدرة؟ وأين حدّها؟ ولمن تُستعمل؟ ومتى تُكفّ؟ وكيف لا تتحول إلى ظلم؟

لقد كانت قوة النبي ﷺ محروسةً بهذا السؤال الدائم: أين مرضاة الله؟ لا أين راحة النفس؟ ولا أين نشوة الغلبة؟ ولا أين رغبة الانتقام؟ ومن هنا كانت قوته أصفى من القوة البشرية المعتادة؛ لأنها لم تكن متوجهةً إلى إثبات الذات، بل إلى إقامة الحق. وما كان لله طهره الله من كثيرٍ من شوائب النفس، وما كان للنفس أفسدته النفس وإن رفع شعار الحق.

ومن يتأمل غزواته ﷺ يجد أن السيرة لا تقدّم صورة قائدٍ مولعٍ بالدماء، بل صورة رسولٍ يحمل رسالةً، ويكره أن يضطره العدوان إلى القتال، لكنه إذا قام مقام القتال لم يكن مترددًا في حماية الحق. كان شجاعًا لا يعرف الجبن، ثابتًا في المواطن التي تزلزل فيها الرجال، لكنه لم يكن متعطشًا للعنف، ولا مستمتعًا بمشهد الانكسار، ولا يرى في الحرب غايةً لذاتها. لقد كان القتال عنده بابًا ثقیلاً من أبواب التكليف، لا مسرحًا للكبرياء.

وهذا المعنى يفصل بين الشجاعة النبوية والعدوان. فالشجاعة أن تثبت للحق، لا أن تتلذذ بإيقاع الأذى؛ وأن تحمل نفسك على ما تخاف حين يأمر الله، لا أن تندفع إلى ما تشتهي النفس باسم الحماسة؛ وأن تكون حاضرًا حين تحتاج الأمة إلى ثباتك، لا أن تصنع معارك جانبية لإثبات وجودك. أما العدوان فهو أن تستعمل القوة خارج الحق، أو فوق الحد، أو بغير ميزان، أو لتغذية غريزة الانتصار الشخصي. والنبى ﷺ كان أشجع الناس، لأنه كان أبعد الناس عن العدوان.

ومن لطائف القوة المحمدية أنها لم تكن تحتاج إلى الضجيج. فالقوة الحقيقية ساكنة في مركزها؛ لا تصرخ لتثبت أنها قوية، ولا تستفزها كل كلمة، ولا تطيش عند كل خصومة. أما الضعف الداخلي فيلبس أحيانًا ثوب العنف، فيحتاج صاحبه إلى رفع الصوت، وإظهار القسوة، والإكثار من التهديد، لأنه في داخله غير مطمئن إلى قوته. والنبى ﷺ كان قويًا بقلبه المتصل بالله، ولذلك لم يكن يستعرض القوة استعراضًا فارغًا، بل يستعملها حين تكون أمانة وضرورة.

إن من أعظم صور القوة في سيرته ﷺ قدرته على ضبط الغضب. فالغضب طاقة عمياء إذا لم يهذبها الوحي حملت الإنسان إلى الظلم، وقد يستطيع الإنسان أن يهزم خصمه ثم يعجز عن هزيمة غضبه، فيكون المنتصر في الظاهر مهزومًا في الحقيقة. أما النبى ﷺ فكان غضبه لله، لا لنفسه؛ وإذا غضب لله لم يخرج عن العدل، وإذا عفا عن حق نفسه لم يكن عفوه ذلًا، بل كان سيادةً على النفس. ومن هنا نفهم أن القوة ليست فقط في اليد التي تستطيع أن تضرب، بل في القلب الذي يستطيع أن يمنع اليد من الظلم.

وهذا بابٌ عظيم في تربية الرجال والأمم. فالأمة التي لا تملك قوةً تُستباح، والأمة التي تملك القوة بلا أخلاق تستبيح غيرها وتفسد نفسها. ولا تقوم الأمة التي أرادها النبي ﷺ إلا بجمع الأمرين: قوةٌ تحمي الحق، وأخلاقٌ تحمي القوة من الانحراف. فالضعف ليس فضيلةً في ذاته، كما أن القوة ليست فضيلةً في ذاتها؛ الفضيلة أن تكون القوة لله وبالله وفي حدود ما شرع الله، وأن لا تكون ذريعةً للبغي أو الكبر أو إلغاء الإنسان.

ولذلك جاء الإسلام لا ليصنع أمةً منسحبةً من التاريخ، ولا أمةً عدوانيةً تعبد الغلبة، بل أمةً شاهدةً على الناس، تحمل الحق بقوةٍ عادلة، وتمنع الفساد بميزانٍ رحيم، وتعرف أن بقاء الحق في الأرض يحتاج إلى قلوبٍ خاشعة وسواعدٍ قادرة، وإلى عقولٍ مبصرة وإراداتٍ صابرة. ومن قرأ السيرة ظناً منه أن الرحمة النبوية تعني إلغاء القوة، فقد ظلم الرحمة؛ ومن قرأ الجهاد ظناً منه أن القوة النبوية تعني إلغاء الرحمة، فقد ظلم القوة؛ وإنما الكمال في الجمع الذي لا يحسنه إلا الوحي.

إن النبي ﷺ لم يربِّ أصحابه على الضعف، بل ربّاهم على القوة المؤدبة. كانوا أشداء في موطن الشدة، رحماء في موطن الرحمة، أهل عبادة لا أهل رهبانية منعزلة، وأهل جهاد لا أهل وحشية، وأهل سياسة لا أهل مكرٍ خسيس، وأهل دنيا في أيديهم لا في قلوبهم. وهذا هو الإنسان الرسالي الذي تصنعه السيرة: إنسانٌ لا يخاف أن يكون قوياً، لكنه يخاف أن يظلم بقوته؛ ولا يخاف أن يحزم، لكنه يخاف أن يدخل الهوى في حزمه؛ ولا يخاف أن يواجه الباطل، لكنه يخاف أن يشبه الباطل في أثناء مواجهته.

وهذا من أدق محكات الأخلاق: أن لا تتلوث بخصمك وأنت تقاومه. فكثيرٌ من الناس يبدؤون بمواجهة الظلم، ثم يتشربون بعض أخلاق الظالمين؛ يكذبون لأن خصومهم يكذبون، ويغدرون لأن خصومهم يغدرون، ويظلمون لأنهم ظلموا، ويبررون لأنفسهم ما كانوا ينكرونه على غيرهم، حتى يصير الصراع ذريعةً لفقدان الروح التي قاموا من أجلها. أما النبي ﷺ فكان يواجه الباطل دون أن يستعير وسائله المحرمة، ويغالب العدوان دون أن يصير عدواناً، ويقيم الحق دون أن يفسد الحق بأدوات الباطل.

ولهذا كان الوفاء بالعهد، والصدق في الخصومة، والعدل مع المخالف، ومنع الغدر، وحفظ الكلمة، كل ذلك من صميم القوة النبوية. فالذي لا يلتزم الأخلاق إلا حين يكون ضعيفاً لم يعرف الأخلاق، وإنما عرف العجز. أما الأخلاق الحقيقية فتظهر حين تستطيع أن تخالفها لمصلحتك ثم تمتنع خوفاً من الله. والنبي ﷺ علم الأمة أن أخلاقها ليست ثوباً تلبسه في السلم وتخلعه في الحرب، بل هي عبوديةٌ ترافقها في كل حال.

ومن هنا يتضح أن القوة النبوية ليست فقط قوة قتال، بل قوة وفاء. والوفاء من القوة لأنه يحتاج إلى غلبة النفس عند المصلحة، وإلى احترام العهد حين يدعوك الظرف إلى نقضه، وإلى الثبات على الكلمة حين يفتح لك الغدر باب مكسبٍ عاجل. وقد كان ﷺ أوفى الناس، لأن الوحي ربّى فيه أن الحق لا يتجزأ، وأن الغاية الشريفة لا تبيح الوسيلة الخسيسة، وأن نصر الله لا يُطلب بمعصية الله.

إن القوة التي لا تتحول إلى بطش تحتاج إلى ثلاثة حراس: خشية الله، وعدل الميزان، ورحمة القلب. فإذا غابت خشية الله صارت القوة متألّهة في الأرض، وإذا غاب العدل صارت انتقامًا أو محاباة، وإذا غابت الرحمة صارت جفافًا وقسوةً ولو رفعت شعار النظام. والنبي ﷺ جمع هذه الحراس كلها؛ كان أخشى الناس لله، وأعدل الناس حكمًا، وأرحم الناس قلبًا، ولذلك سلّمت قوته من الانحراف، وبقيت عظمتها في أنها قوةٌ ساجدة، تعرف حدها، وتذكر مصدرها، وتخاف سؤالها.

وفي هذا الباب ينبغي أن نتأمل كيف ربط النبي ﷺ القوة بالمسؤولية لا بالزهو. فالقوي في ميزانه ليس من يملك القدرة على قهر الناس، بل من يملك نفسه عند الغضب، ومن يحمل أمانته دون بغي، ومن ينصر الضعيف، ومن يمنع الظالم من ظلمه، ومن لا يبيع عدله لمصلحة أو قرابة أو عداوة. وبذلك انتقل مفهوم القوة من كونه امتيازًا شخصيًا إلى كونه تكليفًا أخلاقيًا. إن القوة في الإسلام ليست تاجًا يوضع على رأس الإنسان ليعلو به على الناس، بل حملٌ ثَقِيلٌ يسأل عنه بين يدي الله.

وهذا المعنى يحتاجه كل صاحب قدرة، لا الحاكم والقائد وحدهما؛ يحتاجه الأب في بيته، والمعلم في مدرسته، والكاتب في قلمه، والغني في ماله، والمسؤول في موقعه، والعالم في علمه، وكل من جعل الله له تأثيرًا في حياة غيره. فلكل إنسان نوع قوة، وقد تتحول هذه القوة الصغيرة إلى بطش صغير إذا لم تُهذب: كلمة تكسر، قرارٌ يظلم، مالٌ يذل، علمٌ يتكبر، مكانةٌ تُستعمل للإيذاء، قلمٌ يشهر، قربٌ يخون الثقة. والسيرة النبوية تضع أمام كل هؤلاء

ميزانًا: لا تقس قوتك بما تستطيع أن تفعله بالناس، بل بما تمتنع عنه الله، وبما تحمله من حق، وبما تكفّه من ظلم، وبما تصونه من كرامة.

إن من أعظم صور البطش الخفي أن يستعمل الإنسان حقًا مشروعًا بروحٍ ظالمة. فقد يكون له حقٌّ في الكلام، لكنه يتكلم بطريقةٍ تذل؛ وله حقٌّ في العقوبة، لكنه يعاقب بروح الانتقام؛ وله حقٌّ في النقد، لكنه ينقد بروح التشفي؛ وله حقٌّ في الحزم، لكنه يحزم بقلبٍ قاسٍ. أما الهدي النبوي فيعلمنا أن الحق لا يكفي وحده إذا حملته نفسٌ مريضة؛ لا بد أن يكون الحق في موضعه، وبقدرة، وبقصده الصحيح، وبأدبٍ يحفظه من أن يتحول إلى صورةٍ من صور الظلم.

ولهذا كان النبي ﷺ يربي الأمة على نقاء الباطن كما يربيها على صحة العمل؛ لأن العمل قد يكون في صورته حقًا، ثم يفسده قصدٌ فاسد، أو تجاوزٌ في الحد، أو شماتةٌ في القلب. والقوة من أكثر الأعمال حاجةً إلى طهارة النية، لأنها تمنح النفس فرصةً للتوسع. ومن هنا كان أخطر ما في القوة أنها تفضح ما في الداخل؛ فمن كان في قلبه رحمةٌ وعدل أظهرت قوته رحمته وعدله، ومن كان في قلبه كبرٌ وانتقام أظهرت قوته كبره وانتقامه. أما النبي ﷺ فكانت قوته تكشف طهارته لا عكسها.

ولذلك لم يكن عفوهُ ﷺ مناقضًا لقوته، بل كان من دلائلها. فالضعيف قد يعفو لأنه لا يستطيع، أما القوي إذا عفا في موضع العفو فقد بلغ مقامًا عظيمًا؛ لأنه غلب خصمه وغلب نفسه، وملك القدرة وملك هواه. وعفو النبي ﷺ يوم الفتح وأمثاله في السيرة ليس مجرد صورة جميلة للرحمة، بل إعلانٌ أن القوة

المحمدية لم تكن أسيرةً للماضي الجارح، وأن الرسالة عنده أكبر من ذاكرة الأذى، وأن فتح القلوب أحياناً أعظم من الانتصار على الأجساد.

لكن العفو نفسه لم يكن قاعدةً تلغي العدل، بل كان يُوضع حيث يحقق مقصده. فالعفو عن المذنب التائب غير ترك المعتدي المفسد، والعفو الذي يفتح باب الهداية غير العفو الذي يغري بالبغي، والعفو عن حق النفس غير التفريط في حقوق الناس. وهذا التمييز من كمال القوة النبوية؛ فهي لا تنتقم لنفسها، لكنها لا تخون حقوق الخلق، ولا تجعل الحلم ذريعةً إلى ضياع العدالة. إن عفو النبي ﷺ كان عفواً حكيماً، كما كان حزمه حزمًا رحيماً.

ومن هنا نرى أن القوة عنده ﷺ ليست رد فعلٍ على الخوف، بل فعلٌ صادرٌ عن اليقين. فالخائف من داخله قد يبطش ليخفي خوفه، والمتردد قد يقسو ليستر اضطرابه، والضعيف أخلاقياً قد يبالغ في العنف ليبرهن على حضوره. أما صاحب اليقين فيستعمل القوة بطمأنينة، لا بانفعال؛ وبميزان، لا بفوضى؛ وبقدر الحاجة، لا بشهوة التوسع. والنبي ﷺ كان أقوى الناس يقيناً، ولذلك كانت قوته مستقرة لا هوجاء، حازمة لا مضطربة.

وقد كانت قوته ﷺ في البيان لا تقل عن قوته في الميدان. فالحق يحتاج إلى لسانٍ صادق كما يحتاج إلى يدٍ عادلة، والنبي ﷺ كان إذا تكلم أقام المعنى في النفوس، وكشف الوهم، وردّ الناس إلى الله، دون أن يكون بيانه استعراضاً ذاتياً. كان كلامه قوةً لأنه صادرٌ عن صدقٍ ووحى، لا عن رغبةٍ في السيطرة البلاغية على الناس. ومن هنا نعرف أن البيان قد يكون قوةً رحيمةً إذا هدى، وقد يكون بطشاً إذا استعمل للتلبيس أو الإذلال أو التلاعب بالعقول. أما بيانه

ﷺ فكان نورًا؛ قوته في وضوحه، وجماله في صدقه، وأثره في أنه لا يريد أن يملك السامع، بل أن يحرره الله.

وفي بناء الأمة ظهرت قوة أخرى: قوة الصبر الطويل على التربية. فليس بناء الرجال أهون من خوض المعارك، بل هو أشق؛ لأنك في المعركة تواجه عدوًا ظاهرًا، أما في التربية فتواجه عاداتٍ مترسخة، ونفوسًا متفاوتة، وبقايا جاهلية، وضعفًا بشريًا، واختلاف طبائع. وقد ربّى النبي ﷺ أصحابه بالوحي والحكمة والقُدوة والرفق والحزم، حتى صاروا أمةً تحمل الرسالة. وهذه قوة لا يلتفت إليها من لا يعرف إلا مظاهر الغلبة؛ قوة أن تصنع إنسانًا جديدًا، وأن تحول القبائل المتفرقة إلى جماعةٍ مؤمنة، وأن تنقل الناس من منطق العصبية إلى منطق الأخوة، ومن عبادة الهوى إلى عبادة الله.

إن البطش يستطيع أن يخضع الأجساد مؤقتًا، لكنه لا يبني القلوب. والخوف يستطيع أن يصنع طاعةً ظاهرية، لكنه لا يصنع إيمانًا. أما النبي ﷺ فبنى أمةً تحبه وتطيعه وتفديه، لا لأنها مرعوبةٌ منه، بل لأنها رأت فيه الصدق والرحمة والعدل والوحي، ولأن الإيمان الذي جاء به أعاد ترتيب نفوسها. وهذه هي القوة العليا: أن تغير الداخل، لا أن تقهر الخارج فقط؛ أن تصنع ضميرًا، لا أن تفرض نظامًا وحسب؛ أن تجعل الإنسان يراقب الله حين لا يراه الناس، لا أن يتحرك فقط تحت عين السلطة.

ومن هنا نفهم لماذا كانت قوته ﷺ باقية الأثر. فالقوة التي تقوم على البطش تنتهي غالبًا بانتهاء الخوف، أما القوة التي تبني الإنسان بالحق فتبقى بعد صاحبها؛ لأنها تتحول إلى هدايةٍ ووعيٍ وسنةٍ وميزان. وقد مضى رسول الله

ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وبقيت قوته في أمته لا بوصفها سلطاناً مادياً مستمراً فقط، بل بوصفها قدرةً على الإحياء والتربية والتجديد؛ كلما عادت الأمة إلى هديه وجدت فيه ما يقيمها من ضعفها، وما يضبط قوتها إذا قويت.

إن العالم اليوم يملك قوةً هائلةً، لكنه كثيراً ما يفتقر إلى الوحي الذي يؤدبها. يملك أدوات قهرٍ لم تعرفها العصور السابقة، وقدرةً على التدمير، ونفوذاً إعلامياً واقتصادياً وسياسياً، ولكنه حين يفصل القوة عن الغاية الأخلاقية والعبودية لله يجعلها خطراً على الإنسان نفسه. وهنا تبدو السيرة النبوية حاجةً كونيةً لا ذكرى دينيةً خاصة؛ لأنها تقول للعالم: ليست المشكلة أن تكون قوياً، بل أن لا تعرف لمن تكون قوتك، وبأي ميزان تستعملها، ومتى تكفها، وكيف تمنعها من أن تتحول إلى إلهٍ صغيرٍ يعبد نفسه في الأرض.

القوة بلا إيمان قد تصنع حضارةً مخيفة.

والقوة بلا عدل قد تصنع نظاماً ظالماً.

والقوة بلا رحمة قد تصنع إنساناً بارداً.

والقوة بلا تواضع قد تصنع طاغية.

والقوة بلا آخرة قد تصنع عالماً يحاسب المكاسب ولا يحاسب المصائر.

أما القوة النبوية فتبدأ من الله وتنتهي إلى الله؛ تستعمل الدنيا ولا تعبدها، تقيم الحق ولا تتجاوز الحد، تواجه الباطل ولا تتخلق بأخلاقه، تحمي الضعفاء ولا تستضعف غيرهم، تدخل المعركة عند الحاجة ولا تجعل المعركة غاية الوجود، وتعرف أن النصر ليس فقط أن تغلب عدوك، بل أن تبقى بعد الغلبة عبداً لله.

وفي هذا المعنى يتضح وجهٌ آخر من عنوان الكتاب: الإنسان الذي لم تفسده العظمة. فقد تكون العظمة علماً، وقد تكون رحمة، وقد تكون قوة، وأخطرها القوة؛ لأنها تمنح النفس قدرةً على تنفيذ ما كان مجرد خاطر. كثيرٌ من الناس في داخلهم ظالمٌ صغير، لا يظهر لأنه عاجز؛ فإذا امتلك القدرة خرج الظلم من خفائه. أما النبي ﷺ فكلما اتسعت قدرته ظهر من كماله ما كان مخبوءاً في مقام الصبر؛ ظهر عفوه، وعدله، ورحمته، وخشيته، وتواضعه، كأن القوة لم تضاف إليه فساداً، بل كشفت عن طهارةٍ أعمق.

وهذا هو الامتحان الأعظم: أن لا تكون أخلاقك نتيجة عجزك.

أن لا تكون حليماً لأنك لا تستطيع الغضب.

ولا عفيفاً لأن الباب مغلق.

ولا عادلاً لأنك لا تملك فرصة الظلم.

ولا متواضعاً لأنك لم تذق الرفعة.

ولا رحيماً لأنك لا تملك سلطة العقوبة.

النبي ﷺ كان حليماً وهو قادر، وعفيفاً وهو مختار، وعادلاً وهو حاكم، ومتواضعاً وهو أعظم الخلق، ورحيماً وهو يملك أن يعاقب. ولذلك كان كماله حقيقياً لا ظرفياً، وخلقه ذاتياً مؤدباً بالوحي لا نتيجة نقصٍ في القدرة.

ومن هنا ينبغي أن نربي أنفسنا على سؤال السيرة: ماذا تفعل بي القوة إذا وصلت إلى يدي؟ هل تزيدني تواضعاً أم كبراً؟ هل تجعلني أرحم أم أقسى؟ هل تكشف عدلي أم تكشف هواي؟ هل أحمي بها الضعيف أم أضيف بها ضعفاً إلى ضعفه؟ هل أستعملها لله أم لنفسي؟ فليس الخطر في القوة وحدها،

بل في القلب الذي يحمل القوة. والقلب إذا لم يسجد لله سجدت له القوة فأهلكته، أما إذا سجد القلب لله صارت القوة خادمة للحق.

إن رسول الله ﷺ يعلمنا أن القوة لا تكون طاهرة حتى تمر بثلاثة أبواب: باب النية، وباب العدل، وباب الرحمة. ففي باب النية تسأل: هل أريد وجه الله أم أريد وجهي؟ وفي باب العدل تسأل: هل وضعت الفعل في موضعه وبقدره؟ وفي باب الرحمة تسأل: هل بقي قلبي إنسانياً مؤمناً، أم صار يستلذ الإيذاء؟ فإذا سقط بابٌ من هذه الأبواب دخل الخلل؛ وإذا حفظت كلها اقتربت القوة من معناها النبوي.

ولعلّ أعظم ما ينبغي أن يقال في ختام هذا الفصل أن النبي ﷺ لم يكن ضد القوة، بل ضد فسادها؛ ولم يكن ضد الحزم، بل ضد تحوله إلى قسوة؛ ولم يكن ضد القتال المشروع، بل ضد العدوان؛ ولم يكن ضد الهيبة، بل ضد الكبر؛ ولم يكن ضد النصر، بل ضد الزهو الذي ينسى المنعم. وهذه الدقة ضرورية؛ لأن بعض النفوس الضعيفة تريد أن تجعل الدين تبريراً لعجزها، وبعض النفوس القاسية تريد أن تجعل الدين تبريراً لعنفها، والسيرة النبوية ترفض الاثنين معاً، وتبني الإنسان القوي الرحيم، الحازم العادل، الشجاع الخاشع، المنتصر الساجد.

لقد كانت قوة النبي ﷺ قوة لا تخاف الحق ولا تظلم الخلق.

قوة لا تتسحب من مواجهة الباطل ولا تتلوث به.

قوة لا تترك المستضعفين ولا تستبيح المخالفين.

قوة لا تعرف الجبن ولا تعرف البغي.

قوةً لا تسكت عن الظلم ولا تنتقم للنفس.

قوةً تحمل السيف حين يكون السيف حقًا، وتحمل العفو حين يكون العفو أهدي، وتحمل الصبر حين يكون الصبر أمرًا، وتحمل البيان حين يكون البيان أبلغ من كل مواجهة.

وهكذا تتكامل الصورة:

في الفصل السابق رأينا الرحمة التي لا تلغي الحق، وهنا نرى القوة التي لا تلغي الرحمة.

وهما معًا جناحان في الشخصية المحمدية: رحمةٌ تمنع الحق من الجفاف، وقوةٌ تمنع الرحمة من الضعف، وكلاهما تحت سلطان العبودية لله.

ومن لم يفهم هذا الجمع سيظل يتأرجح بين دينٍ رخويٍّ لا يحمي حقًا، ودينٍ غليظٍ لا يحمل رحمة. أما الهدى النبوي فهو الطريق الأوسط الأعلى: أن تكون قويًا لأن الحق قوي، رحيماً لأن الله أرسل نبيه رحمةً للعالمين، عادلاً لأن الظلم ظلمات، متواضعاً لأن الكبرياء لله وحده، خاشعاً لأن القوة كلها من الله، وموقناً أن أعظم نصرٍ ليس أن تقدر على الناس، بل أن لا تقدر عليك نفسك حين تقدر عليهم.

هذا هو محمد ﷺ:

القوة التي لم تتحول إلى بطش،  
والشجاعة التي لم تصر عدواناً،  
والحزم الذي لم يفقد الرحمة،  
والنصر الذي بقي ساجداً،

والقدرة التي ظلت عبدةً لله،  
والعظمة التي كلما امتلكت أسباب الغلبة ازدادت خوفًا من الله وعدلاً في  
الناس ورحمةً بالخلق.

## الفصل الخامس

### الْجَمَالُ النَّفْسِيُّ فِي الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ

ليس البيت في السيرة النبوية هامشاً خاصاً خارج المعنى الكبير للرسالة، ولا مساحةً شخصيةً منفصلةً عن بناء الإنسان، ولا تفصيلاً عائلياً يُذكر بعد ميادين الدعوة والجهاد والحكم، بل هو من أدق المواضع التي يتجلى فيها كمال النبي ﷺ؛ لأن البيت هو المكان الذي تسقط فيه كثيرٌ من الصور المصنوعة، وتنحلّ فيه الأقنعة الاجتماعية، ويظهر فيه الإنسان على حقيقته الأقرب، لا كما يريد أن يراه الناس في المشهد العام. ومن هنا كان النظر إلى البيت النبوي باباً عظيماً في فهم الصدق المحمدي؛ لأن من كان عظيماً في الأمة، رحيماً في بيته، جميل العشرة في قربه، ثابت الخلق في خاصته، فقد بلغت عظمته درجةً لا تصنعها الخطابة، ولا يحفظها الجمهور، ولا تفرضها السلطة، بل يشهد لها من عرفه في أدق تفاصيل الحياة.

كثيرٌ من الناس يبدون كباراً في المسافات البعيدة، فإذا اقتربت منهم رأيت من ضيق الخلق، وغلظة الطبع، وسرعة الانفعال، وتعاضم النفس، ما يكسر الصورة العامة. وقد يحسن الإنسان أخلاقه مع الغرباء لأنهم مراياه الاجتماعية، ويقسو على أهله لأنهم لا يملكون عنه دفعاً، أو لأنه يرى البيت موضع سقوط التكلف لا موضع تمام المروءة، وكأن الأخلاق عنده زينةٌ للخارج لا حقيقةٌ تسكن الداخل. أما رسول الله ﷺ فكان كماله في بيته شاهداً على أن أخلاقه لم تكن هيئةً دعويةً عارضة، ولا سياسةً اجتماعيةً لحفظ

المكانة، بل كانت خلقًا راسخًا، وعبوديةً ممتدة، ورحمةً لا تنقطع عند عتبة الباب.

وهنا تظهر قاعدة عميقة:

**من لم تصدق عظمته في بيته، فغالبًا ما في عظمته شيءٌ من التمثيل.**

فالبيت يمتحن الإنسان بغير شهودٍ كثيرين، ويمتحنه بالتكرار لا باللحظة العابرة، ويمتحنه مع من يعرف ضعفه ويعرف عاداته ويخالطه عند التعب والمرض والحزن وضيق اليد واختلاف الرأي. ومن السهل أن يكون الإنسان حليمًا في موقفٍ عامٍّ واحد، أو كريمًا في مشهدٍ مرئيٍّ، أو متواضعًا حين يعلم أن العيون ترقبه؛ لكن الصعوبة أن يكون جميلًا في الدائرة القريبة، حيث لا تصفيق ولا شهرة ولا خطاب، بل حياةً يوميةً صامتةً تكشف المعدن.

ولذلك كانت شهادة بيت النبي ﷺ من أعظم شهادات السيرة؛ لأن من خالطوه في الداخل لم يروا فيه فجوةً بين ما يقول وما يعيش، ولا بين ما يأمر به الناس وما يكون عليه مع أهله، ولا بين الرحمة التي يدعو إليها والرحمة التي يهبها لمن حوله. لقد كان ﷺ في بيته زوجًا، وأبًا، وجدًّا، ومربيًا، ومعلمًا، ورحيمًا، ومشاركًا في شأن أهله، لا يأنف من خدمة، ولا يجعل قوامته استعلاء، ولا يحول مقامه إلى عبءٍ نفسي على من حوله، بل يجعل القرب منه موضع سكنٍ ورحمةٍ وأدب.

إن جمال البيت النبوي لا ينبغي أن يُقرأ قراءةً عاطفيةً سطحيةً، بل ينبغي أن يُقرأ بوصفه مدرسةً في تحويل الإيمان إلى معايشة. فليس الإيمان الكامل فكرةً تلمع في العقل، ولا شعورًا عابرًا في القلب، بل هو سلوكٌ يظهر في

أقرب الناس إليك. ومن لم تجعل عبادته لسانه ألطف، وقلبه أرحم، ويده أكفّ عن الأذى، وحضوره أكثر سكينَةً على أهله، فليفتش عن أثر عبادته في نفسه. لقد كان النبي ﷺ أعبد الناس، وكان من أثر عبادته أنه أرحم الناس، وأجملهم عشرة، وألينهم جانبًا، وأبعدهم عن استغلال المكانة لإرهاق القريبين منه.

وهذا المعنى يردّ على وهمٍ متكرر في حياة بعض المتدينين: أن التدين قد يفهم أحيانًا بوصفه صرامةً جافةً، أو عبوسًا دائمًا، أو خروجًا من رقة النفس، أو انشغالًا بالعبادة عن حسن الخلق مع الأهل، مع أن النبي ﷺ يعلمنا أن العبادة الحقّة لا تُنتج جفافًا في البيت، بل تزيد القلب نورًا، وتزيد اللسان عذوبة، وتزيد النفس رحمة. وليس معنى ذلك أن البيت النبوي كان خاليًا من ابتلاءات الحياة أو اختلاف الطبائع أو أحوال البشر، بل معناه أن هذه الأحوال كلها كانت داخلةً في أدب الوحي، فلا يتحول الخلاف إلى ظلم، ولا التعب إلى قسوة، ولا الغضب إلى إهانة، ولا القوامة إلى كبر، ولا المحبة إلى فوضى.

لقد كان ﷺ يعلم الأمة أن الرجولة ليست قسوة، وأن القوة ليست غلظة، وأن الهيبة لا تحتاج إلى إلغاء الحنان، وأن حسن العشرة ليس ضعفًا في شخصية الرجل، بل كمالٌ في دينه ومروءته. فالذي لا يعرف من القوة إلا رفع الصوت، ولا من الرجولة إلا تضيق العيش على من تحت يده، ولا من القيادة إلا إصدار الأمر، لم يفهم من السيرة إلا ظاهرًا مكسورًا. إن النبي ﷺ كان أقوى الناس وأرحمهم، وأهيبهم وأطفهم، وأعظمهم مقامًا وأقربهم إلى أهله؛ وهذا الجمع هو الذي يظهر معنى الرجولة من شوائب الجاهلية، ويعيدها إلى أصلها الشرعي: مسؤولية، وحماية، ورحمة، وعدل، وحسن صحبة.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن البيت النبوي كان مدرسةً في القوة الحانية؛ قوة لا تضرب لتثبت وجودها، ولا تقسو لتعلن سلطانها، ولا تتعالى لأن الله رفع مقام صاحبها، بل قوة تجعل صاحبها أقدر على الحلم، وأوسع صدرًا، وأكرم عشرةً، وأضبط لنفسه. فالقوي حقًا لا يحتاج إلى إهانة الضعيف ليشعر بقوته، ولا يحتاج إلى إرهاب أهله ليحفظ هيئته، ولا يحتاج إلى أن يكون صعبًا دائمًا حتى لا يستخف به الناس. إن أضعف القوة هي القوة التي لا تطمئن إلا حين تؤذي، وأصدق القوة هي التي تطمئن إلى الحق حتى تستطيع أن ترحم.

لقد جعل النبي ﷺ البيت موضع ظهور للمعروف، لا موضع سقوطه. وكلمة المعروف في الحياة الزوجية ليست لفظًا بسيطًا؛ إنها تعني أن العلاقة ليست عقدًا جامدًا محكومًا بالحقوق المجردة فقط، بل ميثاقٌ تسكنه الرحمة، ويحكمه العدل، ويزينه الفضل، ويصونه الخوف من الله. وقد يستطيع الإنسان أن يؤدي الحد الأدنى من الحق، لكنه يبخل بالفضل، فيجعل الحياة صحيحةً في ظاهرها قاحلةً في روحها. أما البيت النبوي فيعلّمنا أن الحياة لا تقوم بالحقوق وحدها، بل تحتاج إلى جمال النفس، وإلى الحلم، وإلى احتمال الطباع، وإلى الكلمة الطيبة، وإلى إدراك أن القريب أولى الناس بحسن الخلق، لا آخرهم.

ومن عجائب النفس البشرية أن الإنسان قد يظن أنه إذا أحسن إلى البعيد كان ذلك نبلاً، وإذا أحسن إلى القريب كان ذلك واجبًا لا يحتاج إلى عناية؛ فيبذل للناس أجمل عباراته، ثم يعطي أهله بقايا انفعالاته. وهذه آفة عظيمة؛ لأن القريبين هم أكثر الناس تعرضًا لثقلنا، وأكثرهم حاجةً إلى أن نتعبد لله بحسن عشرتهم. والنبي ﷺ قلب هذا الميزان؛ فجعل الخيرية في حسن الرجل لأهله، لأن الأهل هم الميدان اليومي الذي لا تستطيع فيه أن تعيش على صورة

مزخرفة طويلة، بل لا بد أن يظهر ما في قلبك من رحمة أو قسوة، ومن حلم أو ضيق، ومن إثثار أو أنانية.

وفي البيت النبوي نرى كذلك كيف يكون الحب مؤدبًا بالوحي. فالحب ليس انفلاتًا، ولا ذوبانًا في الرغبة، ولا محابةً على حساب الحق، بل مودةً رحيمةً تحفظ الكرامة، وتعرف حدود الله، وتسمو بالإنسان. وقد كان النبي ﷺ يحب، ويصرّح بالمحبة، ويظهر أثرها في لطفه ووفائه وحسن حديثه، دون أن يجعله الحب خارجًا عن العدل، أو ناسيًا لمقام الرسالة، أو منغلّقًا داخل حياته الخاصة عن همّ الأمة. وهذا من كمال التوازن؛ أن يكون القلب واسعًا للمحبة، ثم لا تضيق به الرسالة؛ وأن يرحم أهله، ثم لا يحبس الرحمة فيهم؛ وأن يعطي القريب حقه، ثم لا يظلم البعيد.

إن الحب في السيرة ليس ضعفًا عاطفيًا، بل طاقة تزكية. فمن أحب كما علّم النبي ﷺ صار حبه أكرم، وأصدق، وأوفى، وأبعد عن الاستهلاك والأنانية. أما الحب إذا انفصل عن الوحي فقد يصير تملكًا، أو غيرَةً ظالمة، أو تعلقًا يفسد الميزان، أو شهوةً تتخفى في ثوب العاطفة. والنبي ﷺ يعلمنا أن القلب الكامل ليس القلب الذي لا يحب، بل القلب الذي يحب لله، وبأدب الله، وفي حدود الله، ويجعل المحبة بابًا إلى الرحمة لا بابًا إلى الفوضى.

ومن جمال البيت النبوي أيضًا أن الوفاء فيه لم يكن ينتهي بانتهاء المشهد الحاضر. فالوفاء خلقٌ يكشف عمق النفس؛ لأن الإنسان قد يحسن لمن أمامه طلبًا لاستمرار العلاقة أو حفظًا للمصلحة، أما الوفاء لمن غاب أو مات أو ضعف أثره الدنيوي فهو شاهدٌ على أن الإحسان لم يكن مصلحةً عابرة. وقد

كان ﷺ وفياً على نحوٍ يربّي الأمة أن العلاقات لا تُقاس بمنفعتها اللحظية، وأن المعروف لا ينسى، وأن القلوب الشريفة لا تمحو العشرة من ذاكرتها لأن الأيام تبدلت. والوفاء هنا ليس حنيناً عاطفياً فقط، بل أخلاقٌ تصون الماضي من نكران الحاضر.

وهذا المعنى شديد الحاجة في زمنٍ صارت فيه العلاقات عند كثيرٍ من الناس قابلةً للاستهلاك السريع؛ يُستعمل الإنسان ما دام نافعاً، فإذا انقضت منفعته أو غاب حضوره أو انتهت الحاجة إليه طوي كأنه لم يكن. أما السيرة فتقيم في القلب معنى الوفاء، وتعلم أن من لا يحفظ الودّ القديم لا يؤتمن على ودٍّ جديد، وأن من ينسى المعروف سريعاً يدلّ على فقرٍ في مروءته، وأن من جمال النفس أن تبقى الذاكرة الأخلاقية حيةً لا تمحوها تقلبات المصالح.

وفي علاقته ﷺ بأبنائه وأحفاده نرى الرحمة حين تصير تربيةً لا تدليلاً مفسداً. فقد كان قلبه الشريف واسعاً للصغار، ينزل إلى عالمهم دون أن يفقد مقامه، ويفتح لهم من الحنان ما يجعلهم يذوقون الأمن قبل أن يفهموا معناه. وهذا بابٌ عظيم في بناء الإنسان؛ فالطفل لا ينمو بالكلمات وحدها، بل بالمناخ النفسي الذي يعيش فيه، وبالشعور بأنه محبوبٌ غير مهان، وأن الخطأ لا يعني سقوطه من الرحمة، وأن القرب من الكبير ليس خوفاً فقط بل سكوناً وثقةً. والنبي ﷺ جعل الرحمة بالصغار جزءاً من جمال الدين، حتى لا يتربى الجيل على القسوة باسم الجدية، ولا على الجفاف باسم الرجولة.

وليست الرحمة بالصغار مجرد عاطفةٍ جميلة، بل هي تأسيسٌ عميق لطبيعة المجتمع. فالمجتمع الذي يقسو على أطفاله يزرع فيهم الخوف أو العنف أو

الانكسار، ثم يتعجب من ثمار ما زرع. أما المجتمع الذي يربّيهم على الرحمة المؤدبة فيعلّمهم أن القوة ليست إيذاء، وأن الكبير ليس مصدر رعب، وأن الدين ليس عبوساً، وأن الحنان لا يناقض الهيبة. وفي النبي ﷺ رأى المسلمون أن أعظم رجلٍ في الأمة، وأنقلها رسالة، وأشدّها حملاً لهموم العالم، يجد في قلبه مكاناً لطفلٍ صغير، ويعلم أن الإنسانية لا تكتمل حتى تعرف كيف تنحني رحمةً لمن هم دونها سنّاً وضعفاً.

ومن جهةٍ أخرى، كان البيت النبوي مدرسةً في الصبر على طبائع البشر. فالبيت لا يقوم على مثالياتٍ مجردة، بل على نفوسٍ لها مشاعر، وتفاوتات، وغيره، وحزن، وفرح، وتعب، ورغبة في القرب، وخوف من الفقد. ومن الخطأ أن نتخيل البيت الصالح بيتاً بلا اختلاف، أو بلا مشاعر بشرية، أو بلا لحظات تحتاج إلى حلمٍ وعقل. إن الصلاح ليس غياب الامتحان، بل حضور الوحي في الامتحان. والبيت النبوي لم يكن خارج البشرية، بل كان أعلى نموذجٍ لبشريةٍ مؤدبةٍ بالوحي؛ تظهر فيها المشاعر، لكنها لا تتحول إلى ظلم، ويقع فيها ما يقع في البيوت من أحوال، لكنها تُردّ إلى العدل والرحمة والتقوى.

وهنا تتضح عظمة النبي ﷺ في إدارة القرب؛ فإن إدارة البعيد أسهل من إدارة القريب أحياناً، لأن البعيد لا يراك في كل لحظة، ولا يختبر سعة صدرك في التكرار، ولا يطالبك بما يطالب به القريب من حضورٍ واهتمامٍ وصبر. أما القريب فيحتاج منك إلى خلقٍ مستمر، لا إلى ومضةٍ عابرة. والنبي ﷺ كان في هذا المقام أكمل الناس؛ يعطي كل مقامٍ حقه، ويوازن بين العبادة والبيت، وبين الرسالة والأهل، وبين همّ الأمة وحق القريب، حتى لا تطغى جهةٌ على جهة، ولا تتحول العظمة العامة إلى إهمالٍ خاص.

وهذا درسٌ عظيمٌ للدعاة والكتّاب والمصلحين وأصحاب المشاريع الكبرى؛ فإن بعض الناس إذا حمل همًّا عامًّا استباح به حقوق أهله، أو جعل مشروعه ذريعةً للجفاف، أو ظن أن عظمة الغاية تعفيه من حسن العشرة، وهذا خللٌ في الفهم. فالنبي ﷺ حمل أعظم رسالة، ومع ذلك لم يكن حمل الرسالة سببًا في إهدار الجمال النفسي في بيته، بل كان بيته موضعًا من مواضع تجلي هذه الرسالة. ومن لم يستطع أن يترجم فكرته الكبرى إلى رحمةٍ في أقرب دائرته، فربما كان في فكرته من الادعاء أكثر مما فيها من التحقق.

إن البيت في ميزان الوحي ليس مكانًا للراحة الجسدية فقط، بل موضع صناعة النفس. فيه يتعلم الإنسان الصبر، والحلم، والرفق، والإنفاق، والستر، والوفاء، وخفض الجناح، وحفظ السر، واحتمال الضعف، ومقاومة الأنانية. ولذلك كان من الخطأ أن ينظر الإنسان إلى بيته بوصفه منطقةً خارج العبادة؛ فإن العشرة عبادة، والكلمة الطيبة عبادة، وكفّ الأذى عبادة، والإنفاق عبادة، والعدل بين الأبناء عبادة، والرحمة بالزوجة عبادة، والصبر على التعب عبادة، والوفاء عبادة. ومن جعل بيته محرابًا للأخلاق عرف أن العبادة ليست فقط ما يكون في المسجد، بل ما يظهر من أثر المسجد حين يعود الإنسان إلى أهله.

ولعلّ من أخطر أمراض البيوت أن تتحول الحقوق إلى أسلحة. فيعرف كل طرف ما له، ولا يعرف ما عليه؛ يحفظ النصوص التي تؤيد مطالبه، وينسى النصوص التي تلزمه بالفضل؛ يتكلم عن القوامة وينسى الرحمة، أو يتكلم عن الحقوق وينسى السكن، أو يتكلم عن الطاعة وينسى المعروف، أو يتكلم عن الكرامة وينسى الصبر. أما البيت النبوي فيعلّمنا أن الحياة لا تستقيم

بمنطق المحاكم الدائم، بل بمنطق التقوى؛ لأن التقوى تجعل كل إنسان يخاف أن يظلم، لا أن يخاف فقط أن يُظلم.

إن الفرق بين البيت الذي تحكمه التقوى والبيت الذي تحكمه المساومة أن الأول يراقب الله في الخفي، والثاني يراقب ميزان القوة. فإذا كان أحد الطرفين أقوى استغل قوته، وإذا كان أقدر على الكلام غلب بالحجة ولو ظلم، وإذا كان أوسع نفوذًا ضغط، وإذا كان أقدر على الصمت آذى بالصمت. أما التقوى فتدخل إلى الداخل، وتقول للإنسان: الله يعلم ما تخفيه نيتك، وما تقصده بكلمتك، وما تصنعه بنظرتك، وما تمنعه من حقٍ وأنت قادر، وما تمنّ به من فضلٍ حتى تفسده. والسيرة النبوية تجعل البيت قائمًا على هذا الشعور: أن الله حاضرٌ في المعاملة، لا بمعنى الحلول أو التشبيه، تعالى الله عن ذلك، بل بمعنى العلم والاطلاع والحكم والجزاء؛ فهو سبحانه ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

ومن جمال البيت النبوي كذلك أنه يعلمنا أن المزاح واللفظ والبشر ليست خارجةً عن الوقار. فقد ظن بعض الناس أن الجدية تعني الجفاف، وأن الوقار يعني انعدام البشاشة، وأن العلم يعني ترك اللفظ، مع أن النبي ﷺ كان وقورًا مهيبًا، ومع ذلك كان قريبًا، لطيفًا، باسط الوجه، يعطي النفس حقها من الأنس المباح. وهذا مهم؛ لأن البيوت لا تعيش بالمبادئ المجردة وحدها، بل تحتاج إلى هواءٍ نفسيّ طيب، إلى كلمةٍ تخفف التعب، وإلى ابتسامةٍ تفتح باب القرب، وإلى رقةٍ تجعل الحق محتملاً والواجب محبوبًا.

إن من أقسى البيوت تلك التي تملك الصواب وتفقد الروح؛ فيها أحكام كثيرة، وحقوق محفوظة نظريًا، لكن الهواء النفسي خائق، والكلمة شحيحة، والوجه عابس، والحضور ثقيل. والسيرة النبوية لا تريد بيتًا متقلًا من الحق، لكنها كذلك لا تريد بيتًا صحيح الهيكل ميت الروح. بل تريد بيتًا يجتمع فيه الحق والجمال، الواجب والفضل، الهيبة والأنس، التربية والرحمة، الصبر والبشاشة. وهذا هو معنى الجمال النفسي: أن لا يكون الإنسان صالحًا في الأحكام فقط، بل جميلًا في الحضور.

والجمال النفسي في البيت لا يعني غياب الحزن أو التعب أو ضيق الحال؛ فقد عاش النبي ﷺ وأهل بيته حياةً فيها من الزهد والابتلاء وضيق العيش ما هو معلوم، ولكن الجمال كان في طريقة حمل ذلك كله. قد يكون البيت قليل المتاع، لكنه كثير السكينة؛ وقد يكون بسيطًا في ظاهره، لكنه عظيمٌ في معناه؛ وقد يمر بالجوع، لكنه لا يمر بالقسوة؛ وقد تضيق الدنيا، لكن لا تضيق الرحمة. وهذا درسٌ كبير لعصرٍ ظن أن البيت السعيد هو البيت الممتلئ بالأشياء، مع أن الأشياء إذا خلت من السكينة صارت أثقالًا مزخرفة، وإذا حضرت السكينة جعلت القليل واسعًا.

لقد كان البيت النبوي يعلم الأمة أن الغنى الحقيقي ليس في وفرة المتاع، بل في حضور المعنى. وليس معنى ذلك تمجيد الفقر لذاته أو إلغاء حق الإنسان في السعة إذا رزقه الله، بل المقصود أن قيمة البيت لا تُقاس بما فيه من أثاث وزينة، بل بما فيه من ذكرٍ ورحمةٍ وعدلٍ وسكينة. فرب بيتٍ واسعٍ يضيق بأهله من سوء الخلق، ورب بيتٍ صغيرٍ يتسع بالرحمة. والنبي ﷺ أعاد ترتيب

الميزان: ليست الدنيا هي التي تصنع كرامة البيت، بل تقوى الله وحسن العشرة.

ومن هنا نفهم أن الزهد النبوي في البيت لم يكن إهمالاً للجمال، بل تحريراً للقلب من عبودية المتاع. فالزهد ليس قبلاً ولا فوضى ولا تعذيباً للنفس، بل أن تكون الدنيا في يدك لا في قلبك، وأن لا يتحول البيت إلى معبدٍ للأشياء، وأن لا يصير الاستهلاك هو معنى الحياة. البيت النبوي كان بسيطاً، لكنه مشحونٌ بالمعنى؛ قليل المتاع، عظيم الأثر؛ محدود المساحة، واسع الرسالة. وهذه مفارقةٌ باهرة: من تلك البيوت الصغيرة خرج نورٌ ملأ العالم، بينما بيوتٌ كثيرةٌ تمتلئ بالزخرف ولا تخرج منها إلا الضوضاء والفراغ.

وفي هذا درسٌ للكاتب أيضاً؛ فالذي يريد أن يكتب عن النبي ﷺ ينبغي أن لا يبحث عن الجلال في المشاهد الكبرى وحدها، بل في هذا الصفاء اليومي: كيف كان يحسن في القرب، كيف يحمل الرسالة ولا ينسى اللطف، كيف يكون رسولاً للأمة ولا يغيب عن إنسانية البيت، كيف تكون العبودية لله حاضرةً في الطعام والحديث والراحة والمعاشرة، لا في الصلاة والخطبة فقط. إن سر السيرة أن النور فيها لا يسطع في القمم وحدها، بل يتوزع في التفاصيل، حتى ترى أن التفاصيل نفسها صارت مشكاةً للمعنى.

ومن أعظم ما يظهر في البيت النبوي أنه بيتٌ لا يؤله صاحبه ولا يجفو عنه. فأهل بيته أحبه وعظموه، لكنهم عرفوا أنه عبد الله ورسوله، وأن كمال محبته في اتباعه وتعظيم ما جاء به، لا في الخروج عن حدود الوحي. وهذا بابٌ دقيق؛ لأن القرب من العظماء قد يجرّ بعض الناس إما إلى الغلو أو إلى

الاعتقاد الذي يذهب بالهبة. أما القرب النبوي فكان يزيد المحبة وهي محكومة بالتوحيد، ويزيد المعرفة وهي محكومة بالأدب. ومن هنا كان البيت النبوي مدرسة في التوقير الصحيح: توقير بلا غلو، وقرب بلا ابتذال، ومحبة بلا تأليه، وإنزال للنبي ﷺ منزلته التي أنزله الله إياها: عبدًا رسولًا، خاتم النبيين، وسيد ولد آدم، صلى الله عليه وسلم.

إن هذا التوازن في القرب من أعظم ما تحتاجه الأمة في علاقتها بالنبي ﷺ؛ فهناك من يجفو فيضعف أثر المحبة في قلبه، وهناك من يغلو فيتجاوز حد العبودية، وهناك من يجعل السيرة مادة ثقافية باردة، وهناك من يجعلها عاطفة بلا اتباع. والبيت النبوي يعلمنا أن القرب الصحيح يجمع الحب والأدب، والمعرفة والاتباع، والتوقير والتوحيد، والحنين والطاعة. فالنبي ﷺ لا يُحب كما تُحب الشخصيات العظيمة فحسب، بل يُحب لأنه رسول الله، وتكون محبته من الدين، ويكون برهانها اتباعه، ويكون ضبطها ما شرعه الله.

ومن هنا يصبح البيت النبوي مفتاحًا لفهم معنى الأسوة. فالأسوة ليست فقط في ميادين التضحية الكبرى، بل في المواقف التي يظنها الناس صغيرة: كيف تتكلم إذا غضبت؟ كيف تعتذر إذا أخطأت؟ كيف تعطي القريب حقه؟ كيف توازن بين شغلك ورسالتك وأهلك؟ كيف تحمل التعب دون أن تصبّه على من حولك؟ كيف تجعل قوتك أمانًا لا خوفًا؟ كيف تكون في بيتك كما تريد أن يراك الله، لا كما تحب أن يراك الناس؟ هذه الأسئلة هي التي تجعل السيرة تدخل الحياة، بدل أن تبقى على رفوف الإعجاب.

إن كثيراً من المسلمين يحبون النبي ﷺ في المشهد العظيم، لكنهم يحتاجون أن يتبعوه في المشهد القريب؛ في البيت، في الكلمة، في المعاملة، في الستر، في الحلم، في حفظ الود، في العدل بين من يحب ومن لا يحب، في الرحمة بمن لا يملك شيئاً، في السكينة عند الخلاف. فالحب النبوي ليس أن تذوب عاطفةً عند ذكره ثم تعود إلى بيتك قاسياً، وليس أن تكثر الصلاة عليه ثم تظلم من تحت يدك، وليس أن تمدح رحمته ثم تضيق بمن يحتاج إلى رحمتك. إن الصلاة عليه ﷺ ينبغي أن توقظ فيك الحياء من مخالفته، وأن تجعل سلوكه الشريف ميزاناً تراجع به نفسك.

وفي هذا الفصل نصل إلى معنى مركزي:

### البيت النبوي هو البرهان الداخلي على صدق العظمة الخارجية.

فالعظمة التي لا تدخل البيت عظمة ناقصة، والرحمة التي لا يعرفها الأهل رحمة مشكوك في عمقها، والقيادة التي لا تبدأ من حسن المعاشرة قيادة مصابة في أصلها، والتدين الذي لا ينعكس على القريبين تدين يحتاج إلى مراجعة. أما النبي ﷺ فقد كان بيته شاهداً له، لا شاهداً عليه؛ وكان قربه يزيده جلالاً، لا ينقصه؛ وكانت تفاصيله اليومية تصدق دعوته الكبرى، لا تكشف فجوة بينها وبين حياته.

ومن عظمة هذا الباب أنه يحررنا من الانبهار السطحي بالمظاهر. فقد يرى الناس قائداً على المنبر، أو عالماً في مجلسه، أو كاتباً في عبارته، أو مصلحاً في مشروعه، فيظنون أن تلك الصورة هي كل الحقيقة، بينما الحقيقة الكاملة لا تظهر إلا حين يُسأل: كيف هو مع من لا يخافون منه؟ كيف هو مع من لا

يملكون له نفعًا؟ كيف هو إذا أُغلق الباب؟ كيف هو حين يتعب؟ كيف هو حين يخالفه أهله؟ كيف هو حين يملك أن يؤذي ولا يراه الجمهور؟ هذه الأسئلة هي مختبر الأخلاق. والنبى ﷺ اجتاز هذا المختبر بأكمل ما يكون؛ بل صار هو المعيار الذي تُقاس به الأخلاق في الداخل والخارج.

إن الجمال النفسي في البيت النبوي يعلمنا أن الرسالة لا تكتمل في العالم حتى تبدأ من النفس، ولا تصدق في الناس حتى تصدق في القريب، ولا تكون رحمةً للعالمين إذا لم تكن رحمةً في الدائرة الأولى. ولهذا كان ﷺ رحمةً في بيته كما كان رحمةً في أمته، وكان عدلاً في أهله كما كان عدلاً في حكمه، وكان تواضعاً في خاصته كما كان تواضعاً في عامته، وكان جميلاً في التفاصيل كما كان عظيمًا في المقاصد.

ولعلّ من أعمق ما نستفيدُه هنا أن البيت ليس عائقًا عن السمو، بل ميدانٌ من ميادينِه. فالإنسان لا يصير ربانيًا بهروبه من مسؤولياته القريبة، ولا يصير كبيرًا بإهمال من ائتمنه الله عليهم، ولا يكون صاحب رسالةٍ حقًا إذا كان أقرب الناس إليه يدفعون ثمن رسالته قسوةً وجفافًا. النبى ﷺ يعلمنا أن القرب عبادة، وأن الأهل أمانة، وأن البيت ليس أقل شأنًا من المنبر في ميزان الأخلاق؛ بل ربما كان البيت أصدق من المنبر، لأن المنبر يسمعك الناس فيه، أما البيت فيراك الله فيه حين يغيب التصفيق.

ومن هنا ينبغي أن تُكتب السيرة البيئية للنبى ﷺ لا بوصفها فصلًا في الشمائل اللطيفة فقط، بل بوصفها أصلًا في بناء الحضارة الأخلاقية. فالأمة لا تُبنى بالخطب والسياسات وحدها، بل بالبيوت التي تصنع النفوس. وإذا كان البيت

قاسياً خرجت منه نفوسٌ تحمل آثار القسوة، وإذا كان البيت فوضوياً خرجت منه نفوسٌ ضعيفة الميزان، وإذا كان البيت قائماً على الخوف وحده خرجت منه نفوسٌ إما منكسرةٌ أو متمردة، أما البيت الذي يسكنه العدل والرحمة والذكر والحياء وحسن العشرة، فإنه يمد الأمة بإنسانٍ أقدر على حمل الرسالة. ولهذا كان إصلاح البيت جزءاً من إصلاح العالم، لا شأنًا خاصًا محدودًا.

لقد كانت بيوت النبي ﷺ قليلة المتاع، لكنها كانت عظيمة الوظيفة؛ فيها نزل الوحي، ومنها خرج العلم، وفيها تعلّمت الأمة دقائق العبادة والمعاشرة، ومنها عرفت النساء والرجال كيف يكون الدين حياةً لا شعائر معزولة، وفيها ظهرت إنسانية النبي ﷺ على أكمل ما تكون: بشرٌ يوحى إليه، يعيش بين أهله، يرحم، ويعلم، ويصبر، ويعدل، ويعبد ربه، ويحمل همّ أمته، ولا يجعل العظمة حاجزاً بينه وبين أبسط معاني اللطف.

وهذا كله يعيدنا إلى عنوان الكتاب: الإنسان الذي لم تفسده العظمة.

ففي البيت يظهر هل أفسدت العظمة صاحبها أم لا.

هل جعلته يرى نفسه فوق الخدمة؟

هل جعلته صعب العشرة؟

هل جعلت القريبين منه يخافونه أكثر مما يحبونه؟

هل جعلت مقامه العام حجةً لإهمال حق الخاص؟

هل جعلت الناس يذكرون رحمته بينما أهله يذوقون قسوته؟

أما محمد ﷺ، فقد بقي في بيته عبداً رسولاً؛ عظيماً لا متعالياً، مهيباً لا قاسياً، رحيماً لا ضعيفاً، قريباً لا مبتذلاً، محباً لا غافلاً عن الحق، مشغولاً بالأمة لا

مهملاً لأهله، متعبداً لا منقطعاً عن الحياة. وهذا هو الكمال الذي لا تصنعه النفس لنفسها، بل يصنعه الوحي حين يربي أعظم خلق الله ﷺ.

وفي خاتمة هذا الفصل نقول: إن البيت النبوي ليس مشهداً جانبيّاً في السيرة، بل هو أحد أعماق براهينها؛ لأنه يكشف أن النبوة لم تكن ضوءاً في الخارج فقط، بل كانت نوراً في الداخل؛ وأن الرسالة لم تكن خطاباً للناس فقط، بل كانت خلقاً مع القريب؛ وأن العظمة المحمدية لم تكن عظمة تاريخية باردة، بل عظمة إنسانية مؤدبة بالوحي، تملأ البيت سكيناً كما تملأ الأمة هداية.

فمن أراد الاقتداء بالنبي ﷺ فليبدأ من حيث تظهر حقيقة الإنسان:  
من بيته،

من لسانه مع أهله،

من صبره على طبائعهم،

من وفائه لمن أحسن إليه،

من رحمته بالصغير،

من عدله عند الخلاف،

من لطفه حين يملك أن يقسو،

من تواضعه حين يملك أن يتعالى،

من قدرته على أن يجعل القرب منه نعمة لا خوفاً.

هكذا كان رسول الله ﷺ:

جمالاً نفسياً لا يضعف أمام التكرار،

ورحمة لا تنتهي عند حدود الخطاب العام،

وعظمةً يزداد ضوؤها كلما اقتربت منها،  
وبياناً حياً أن الإنسان إذا ربّاه الوحي لم يكن عظيماً في التاريخ فقط، بل  
عظيماً في بيته، حيث لا يراه إلا الله ومن ائتمنهم الله على قربهِ.

## الفصل السادس

### النَّبِيُّ ﷺ وَبِنَاءُ الْإِنْسَانِ مِنَ الدَّاخلِ

لم تكن بعثة النبي ﷺ انتقالاً بالعرب من نظام اجتماعي إلى نظام اجتماعي آخر فحسب، ولا نقلاً لهم من فوضى قبلية إلى دولة منظمة فحسب، ولا ترقية لأخلاقهم الظاهرة من بعض الخشونة إلى شيء من اللين فحسب، بل كانت في جوهرها بناءً للإنسان من الداخل؛ إعادة تشكيل للضمير، وترتيباً لمصادر الخوف والرجاء، وتحريراً للقلب من عبودية غير الله، وتربيةً للعقل على أن يرى العالم من خلال الوحي لا من خلال العادة وحدها، وتطهيراً للنفس من جاهليتها العميقة التي قد تختبئ تحت الفصاحة والشجاعة والكرم والنسب والقوة.

لقد جاء النبي ﷺ إلى إنسانٍ كان يملك بعض الخصال الكبيرة، لكنه لم يكن يملك الميزان الذي يهديها. كان العربيُّ قد يكون شجاعاً، ولكن شجاعته قد تكون للعصبية؛ وكريماً، ولكن كرمه قد يكون للمفاخرة؛ ووفياً، ولكن وفاءه قد يُحبس داخل حدود القبيلة؛ وصبوراً، ولكن صبره قد يكون على الثأر لا على الحق؛ وفصيحاً، ولكن فصاحته قد تخدم الباطل كما تخدم الحق. فجاء الوحي لا ليُعدم ما في الإنسان من طاقات، بل ليعيد توجيهها؛ لا ليكسر الفطرة، بل ليزكيها؛ لا ليطفئ القوة، بل ليجعلها لله؛ لا ليمحو الشخصية، بل ليخرجها من ضيق الذات إلى سعة العبودية.

وهذا من أعظم أسرار التربية المحمدية: أنها لم تبني الإنسان بإضافة معلوماتٍ إلى ذهنه فقط، بل بإعادة بناء مركزه الداخلي. فالإنسان لا يتغير حقًا حين يعرف ألفاظًا جديدة، ولا حين يحفظ أحكامًا مجردة، ولا حين ينتقل من بيئةٍ إلى بيئة، بل يتغير حين يتبدل ما يعظمه، وما يخافه، وما يرجوه، وما يستحي منه، وما يغضب له، وما يطلبه، وما يرى نفسه مخلوقًا لأجله. فإذا تغيّر هذا المركز، تغيّر الإنسان كله؛ وإذا بقي كما هو، أمكن أن يحمل الإنسان لغةً دينيةً جديدةً على قلبٍ قديم.

لقد بنى النبي ﷺ الإنسان الأول في الإسلام على أصلٍ واحدٍ لا يقوم بناءً بدونه: **التوحيد**. والتوحيد هنا لم يكن فكرةً كلاميةً باردة، ولا شعارًا يقال باللسان، بل كان انقلابًا كاملاً في موقع القلب من الوجود؛ أن يعرف الإنسان أن الله وحده هو الرب، والإله، والمالك، والرازق، والهادي، والأمر، والناهي، وأن كل ما سواه مخلوقٌ مربوبٌ فقير، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله. وحين يدخل هذا المعنى في القلب صادقًا، لا يغيّر العبادة وحدها، بل يغيّر طريقة النظر إلى القوة والمال والناس والموت والحياة والمصير.

فالذي يوحد الله حقًا لا يعود يرى الأصنام حجارةً فقط، بل يرى كل ما يُعبد من دون الله صنمًا ولو لم يكن حجرًا: صنم الهوى، وصنم القبيلة، وصنم المال، وصنم الجاه، وصنم الرأي، وصنم الخوف من الناس، وصنم الإعجاب بالنفس. ومن هنا كانت التربية النبوية تحريرًا شاملاً؛ لأنها لم تكتفِ بتحطيم الأصنام الظاهرة، بل دخلت إلى الأصنام الخفية التي تقيم معابدها في النفس.

وما لم تُحطَمْ هذه الأصنام من الداخل، فقد يبقى الإنسان جاهليًا وإن تغيّر اسمه، وقد يبقى عبدًا وإن ظن أنه تحرر.

إن النبي ﷺ لم يبدأ ببناء دولة قبل أن يبني الإنسان الذي يحمل معنى الدولة. ولم يبدأ بتأسيس قوة قبل أن يربّي القلب الذي لا تفسده القوة. ولم يبدأ بفتح الأرض قبل أن يفتح الداخل المغلق على الجاهلية. وهذا ترتيبٌ شديد الدلالة؛ لأن المشاريع الكبرى إذا تقدمت على الإنسان الذي يحملها فسدت به وفسد بها. فكم من مشروعٍ حقٍّ حملته نفوسٌ مريضةٌ فشوّهته، وكم من دعوةٍ نبيلةٍ دخلتها شهوات أصحابها فصارت ساحةً للتنافس والظهور، وكم من قوةٍ أعطيت لأناسٍ لم تُبنَ ضمائرهم فتحوّلت إلى بطش. أما النبي ﷺ فكان يبني القلب قبل اليد، والنية قبل الحركة، والعبودية قبل التمكين.

ومن هنا كانت مكة مدرسة الداخل. لم يكن المسلمون الأوائل فيها يملكون دولةً ولا سلطانًا ولا قدرةً على دفع الأذى، لكنهم كانوا يتلقون أعظم بناءٍ في التاريخ: بناء الإيمان تحت الضغط. هناك تعلموا أن الحق لا يقاس بكثرة أهله، وأن الغلبة ليست دائمًا علامة الرضا، وأن الصبر ليس هزيمة، وأن الله يرى وإن لم يرَ الناس، وأن الآخرة حقيقةٌ لا تهون أمامها الدنيا، وأن الإنسان قد يؤذى في جسده ويظل حرًّا في قلبه، وأن العبودية لله تمنح الضعيف قوةً لا يفهمها من لا يعرف إلا مقاييس الأرض.

لقد كانت المرحلة المكية تربي فيهم شيئًا لا يستطيع التمكين وحده أن يخلقه: **الصلابة الداخلية**. فالمؤمن الذي لم يتعلم الصبر في الضعف قد يفسده النصر في القوة، والذي لم يعرف الله في المحنة قد ينساه في السعة، والذي لم يثبت

على الحق بلا مكافأة ظاهرة قد يبيع الحق حين تتكاثر المكاسب. ولهذا كان القرآن في مكة يبني العقيدة، ويوقظ الآخرة، ويهدم الشرك، ويثبت القلب، ويعرض مصائر الأمم، ويكشف سنن الله، حتى يتكوّن في الداخل إنسان لا تسوقه اللحظة، ولا تهزمه البيئة، ولا يعبد النتائج العاجلة.

إن البناء الداخلي يبدأ من نقل الإنسان من سطح الحياة إلى عمقها. والجاهلية ليست فقط أن يعبد الإنسان صنماً، بل أن يعيش بلا معنى صحيح، وأن يقيس الأمور بموازين مبتورة، وأن يطلب مجده في ما يفنى، وأن ينسى أنه مخلوق راجع إلى الله. فجاء النبي ﷺ ليعيد إلى الإنسان ذاكرته الوجودية: أنت عبدٌ لله، مخلوقٌ لحكمة، مبتلى في الدنيا، مسؤولٌ عن عملك، راجعٌ إلى ربك، لا يضيع عند الله شيءٌ من خيرٍ أو شرٍ، ولا قيمة لقوةٍ لا تخضع له، ولا كرامة لإنسانٍ يبيع آخرته بدنياه.

ومن تأمل تربية النبي ﷺ لأصحابه رأى أنها كانت تبدأ من تصحيح العلاقة بالله، ثم تنتقل منها إلى تصحيح العلاقة بالنفس والناس والعالم. فمن عرف الله عرف نفسه؛ ومن عرف نفسه لم يتكبر؛ ومن عرف الآخرة لم يعبد الدنيا؛ ومن عرف أن الناس عباد الله لم يظلمهم؛ ومن عرف أن القوة أمانة لم يستعملها بغياً؛ ومن عرف أن الرزق من الله لم يذل قلبه للمخلوقين؛ ومن عرف أن الموت ليس نهايةً مطلقة لم يبيع الحق خوفاً من الفناء.

ولهذا لم يكن الصحابة مجرد تلاميذ تلقوا تعاليم، بل كانوا نفوساً أعيد بناؤها على معنى جديد. كانوا قبل الإسلام أبناء بيئة قبلية تعيش كثيراً من معاني العصبية، فلما رباهم النبي ﷺ صاروا أمةً تتجاوز الدم إلى العقيدة، والنسب

إلى التقوى، والثأر إلى العدل، والتفاخر إلى المسؤولية. وهذا التحول لا تصنعه الخطب وحدها، بل تصنعه تربيةً طويلةً يدخل فيها الوحي إلى مواضع القرار في النفس، فيغيّر معنى الكرامة، ومعنى القوة، ومعنى الخسارة، ومعنى الربح، ومعنى الحياة.

إن من أعظم ما فعله النبي ﷺ أنه نقل الإنسان من مراقبة الناس إلى مراقبة الله. والفرق بين المراقبتين هو الفرق بين الأخلاق المصنوعة والأخلاق الحقيقية. فمن يراقب الناس يحسن ما دام مرئياً، ويعدل ما دام مكشوفاً، ويصدق ما دام الكذب يفضحه، ويستقيم ما دامت البيئة تضغط عليه. أما من يراقب الله فيحمل معه ميزانه في السر والعلن، ويستحي من ربه حيث لا يراه الناس، ويعلم أن الخلوة ليست فراغاً من الشهود، بل موضع نظر الله وعلمه. والله سبحانه وتعالى مطلعٌ على عبادته، لا تخفى عليه خافية، وهو جل جلاله ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

وهذا المعنى هو الذي يصنع الإنسان الأمين. فالأمانة لا تقوم على القوانين وحدها، وإن كانت القوانين ضرورية، بل تقوم على ضميرٍ يعرف أن الله سائله. قد تستطيع السلطة أن تمنع بعض الظلم الظاهر، لكنها لا تستطيع أن تمنع كل خيانة في الخفاء، ولا كل نية فاسدة، ولا كل تلاعبٍ دقيق. أما الإيمان فيزرع في الداخل حارساً لا ينام: مراقبة الله. ولذلك كان بناء الإنسان في الإسلام أعمق من بناء السلوك الخارجي؛ لأنه لا يكفي بأن يقول للإنسان: لا تفعل لأن الناس يرونك، بل يقول له: لا تفعل لأن الله يعلمك، ولأنك ستقف بين يديه.

ومن هنا ندرك لماذا كان النبي ﷺ يربي أصحابه على الإخلاص. فالإخلاص ليس فضيلةً خاصةً بالعباد في محاربيهم فقط، بل هو أساس كل عملٍ رسالي. من فقد الإخلاص حوّل العلم إلى سلّم للجاه، والجهاد إلى طلبٍ للذكر، والصدقة إلى شراءٍ للثناء، والدعوة إلى مسرحٍ للذات، والكتابة إلى تلميعٍ للنفس، والقيادة إلى امتلاكٍ للناس. أما الإخلاص فيردّ العمل إلى الله، ويحفظ صاحبه من أن يعبد أثره، أو جمهوره، أو صورته، أو تاريخه الشخصي.

ولذلك كان النبي ﷺ لا يصنع رجالاً يريدون أن يُذكروا، بل رجالاً يريدون أن يرضى الله عنهم. وهذه هي النقطة الكبرى: من إنسانٍ يبحث عن مكانه في عيون الناس إلى إنسانٍ يبحث عن صدقه عند الله. وحين يتغير هذا المقصد، تتغير الأخلاق كلها؛ فالمخلص لا يحتاج إلى شهودٍ كثيرين ليحسن، ولا إلى تصفيقٍ ليصبر، ولا إلى اعترافٍ دائمٍ ليوصل، ولا إلى مدحٍ ليبقى ثابتاً. إنه يعمل لأن الله حق، ولأن أمر الله حق، ولأن الآخرة حق.

ومن البناء الداخلي كذلك أن النبي ﷺ ربّى في أصحابه معنى المسؤولية الفردية أمام الله، دون أن يلغي معنى الجماعة. فالإنسان في الإسلام عضوٌ في أمة، لكنه لا يذوب فيها حتى تضيع مسؤوليته؛ وهو مسؤولٌ عن نفسه، لكنه لا ينغلق عليها حتى يترك واجبه في الناس. وهذا التوازن دقيق؛ فالجاهلية قد تجعل الإنسان عبداً لجماعته حتى يظلم معها، والفردانية المنفلتة قد تجعله عبداً لنفسه حتى يترك الأمة. أما التربية النبوية فجعلت المؤمن يعيش لله في نفسه وجماعته معاً: يصلح نفسه، ويحمل همّ غيره، ويعلم أنه لا تزر وازرةٌ وزر أخرى، ومع ذلك لا يرضى أن يرى المنكر ثم يسكت عنه عجزاً أو هوى.

لقد بنى النبي ﷺ إنساناً صاحب ضميرٍ لا مجرد تابعٍ مطيع. كان الصحابة يحبونه ويطيعونه، لكن طاعته نفسها كانت تربيةً لهم على طاعة الله، لا على إلغاء عقولهم وضمايرهم. كان يشاورهم، ويعلمهم، ويصحح لهم، ويربيهم على أن الحق أعظم من أهوائهم، وأن الجماعة لا تقوم إلا بالنصح، وأن المؤمن ليس إمعةٌ يدور مع الناس كيفما داروا، بل صاحب ميزان. وهذه التربية أخرجت رجالاً قادرين على حمل الأمانة بعد وفاته ﷺ، لأنهم لم يكونوا متعلقين بشخصه تعلقاً يلغي الوحي، بل متعلقين بالوحي الذي جاء به، محبين له حباً يقود إلى الاتباع.

وهنا تتجلى عظمة النبي ﷺ مرةً أخرى: أنه لم يصنع أتباعاً يدورون حول ذاته، بل صنع عبداً لله يحملون رسالته. كثيرٌ من العظماء يريدون أن يبقى الناس محتاجين إليهم، وأن لا يروا إلا من خلالهم، وأن تكون الجماعة امتداداً لشخصهم. أما النبي ﷺ فكان يربّي الأمة على أن الله هو المقصود، وأن الوحي هو الميزان، وأن محبته ﷺ لا تعني التعلق بصورةٍ بشريةٍ خارج الهداية، بل تعني اتباعه فيما بلغ عن ربه. ولهذا بقي الإسلام بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، لأن البناء كان مؤسساً على الوحي لا على الكاريزما الشخصية بمعناها البشري الضيق.

إن البناء الداخلي في السيرة كان كذلك بناءً للعقل. فالقرآن الذي تلاه النبي ﷺ على الناس لم يخاطب عواطفهم وحدها، بل فتح عقولهم على النظر، والاعتبار، والتفكير، ومشاهدة الآيات في النفس والآفاق، وقراءة مصائر الأمم، وفهم السنن، والتمييز بين البرهان والوهم، وبين الحق والهوى. لقد جاء الإسلام إلى عقلٍ كان محاطاً بالخرافة والعادة والتقليد الأعمى، فحرره

من أن يسجد لأبائه كما يسجد للأصنام، وعلمه أن الحق لا يُعرف بكثرة المتبعين ولا بقدم العادة، بل بما جاء من عند الله، وما قام عليه البرهان.

وهذه من أعظم ثورات الوحي: أنه لم يبلغ العقل، بل أعاده إلى موضع العبودية الصحيح. العقل في الإسلام ليس إلهاً يحاكم الوحي، ولا عضواً معطلاً أمامه، بل نعمة مخلوقة تهتدي بنور الوحي، وتفهم، وتتدبر، وتعتبر، وتستدل، وتعرف حدودها. ومن هنا صنع النبي ﷺ إنساناً لا يحتقر عقله باسم الدين، ولا يؤله عقله باسم الحرية، بل يستعمل عقله في مقامه، ويخضع لله في كل مقام. وهذا التوازن يحمي الإنسان من خرافتين متقابلتين: خرافة إلغاء العقل، وخرافة تأليهه.

ومن البناء الداخلي أيضاً بناء الحس الأخلاقي. فقد كان الإنسان الجاهلي يعرف بعض مكارم الأخلاق، لكنه لم يكن يملك منظومةً كاملةً تضبطها بالوحي. فجاء النبي ﷺ ليجعل الأخلاق عبادةً لا مجرد مروءة اجتماعية، وليجعل الصدق نجاةً عند الله لا مجرد سمعة حسنة، وليجعل العدل أمراً إلهياً لا توازن مصالح، وليجعل الرحمة قرباً من الله لا ضعفاً، وليجعل الكرم إخلاصاً لا مفاخرة، وليجعل الحياء خلقاً إيمانياً لا خجلاً اجتماعياً، وليجعل الوفاء بالعهد ديناً لا عرفاً قبلياً متقلّباً.

وهذا التحول مهم جداً؛ لأن الأخلاق إذا لم تتصل بالله بقيت قابلةً للمساومة. قد يصدق الإنسان ما دام الصدق ينفعه، ويكذب حين ينفعه الكذب؛ وقد يعدل مع قريبه ويظلم عدوه؛ وقد يفي بالعهد مع القوي وينقضه مع الضعيف؛ وقد يرحم من يحب ويقسو على من يبغض. أما حين تصير الأخلاق ديناً، فإنها

تخرج من الانتقائية إلى الثبات؛ لأن المؤمن لا يصدق للناس فقط، بل يصدق لله، ولا يعدل مع من يحب فقط، بل يعدل لأن الله أمر بالعدل، ولا يفي بالعهد حين يكون مربحاً فقط، بل يفي لأن العهد مسؤولية.

وقد كان النبي ﷺ يربي هذا الثبات الأخلاقي بالموقف الحي قبل القول المجرد. رآه أصحابه صادقاً في الشدة والرخاء، عادلاً مع القريب والبعيد، رحيماً في القدرة، وفيما حين تغري المصلحة بخلاف الوفاء، متواضعاً حين تكتمل أسباب الرفع. لذلك لم تكن أخلاقه خطاباً تلقى عليهم، بل كانت حياةً تحيط بهم. وكان هذا من أقوى وسائل البناء؛ لأن الإنسان يتعلم من النموذج ما لا يتعلمه من التعريف، ويرى في القدوة إمكانية المعنى لا مجرد وجوبه.

ومن هنا كان النبي ﷺ يبني أصحابه بالقرآن وبنفسه الشريفة معاً؛ بالوحي الذي يتلى، وبالأسوة التي تمشي أمامهم. فالقرآن يرسم المعيار، والنبي ﷺ يجسده. القرآن يأمر بالصبر، وهم يرونه يصبر؛ يأمر بالرحمة، وهم يرونه يرحم؛ يأمر بالعدل، وهم يرونه يعدل؛ يأمر بالتوكل، وهم يرونه يتوكل؛ يأمر بالثبات، وهم يرونه أثبت الناس. وهذا الاقتران بين النص والنموذج هو الذي جعل التربية النبوية عميقة إلى هذا الحد. فالناس لا يحتاجون إلى الحق مكتوباً فقط، بل يحتاجون أن يروه ممكناً في حياة إنسانٍ مصطفى مؤيدٍ بالوحي.

إن بناء الإنسان من الداخل لا يتم كذلك إلا بتغيير علاقته بالدنيا. وقد كانت الدنيا قبل الوحي عند كثيرٍ من الناس غايةً نهائية: مالٌ، ونسبٌ، وذكرٌ، وقوةٌ، وغلبةٌ، ومتاع. فجاء النبي ﷺ ليضع الدنيا في حجمها الصحيح؛ ليست عدماً ولا شراً مطلقاً، وليست معبوداً ولا غايةً أخيرة، بل دار ابتلاء، ومزرعة

آخرة، وموضع عمل، ومتاع زائل إن لم يُضبط بالحق أفسد صاحبه. بهذا المعنى تحرر الصحابة من عبودية الدنيا دون أن ينسحبوا من عمارتها؛ صاروا يعملون فيها ولا يسجدون لها، ويملكونها حين يملكونها ولا يجعلونها مالكةً لقلوبهم.

وهذا هو الزهد النبوي الصحيح: ليس إهمالاً للحياة، بل تحريراً للقلب من استبدادها. فالإنسان قد يكون فقيراً وقلبه عبدٌ للدنيا، وقد يكون غنياً وقلبه أزهد فيها من كثيرٍ من الفقراء؛ المسألة ليست فيما في اليد وحدها، بل فيما في القلب. والنبى ﷺ ربى الأمة على أن المال أمانة، وأن النعمة شكر، وأن الفقر صبر، وأن الغنى ابتلاء، وأن التفاضل ليس بما تملك، بل بما تكون عليه عند الله. وحين يدخل هذا المعنى في الإنسان، لا يعود المال سيده، ولا الفقد يكسره، ولا السعة تطغيه.

ومن البناء الداخلي بناء العلاقة بالموت. فالجاهلية قد ترى الموت نهايةً تبتلع المعنى، أو حدثاً يثير الرثاء والفخر والجزع، أما الوحي فجعل الموت انتقلاً إلى الله، وباباً إلى الحساب، وتذكيراً بالغاية. والنبى ﷺ ربى أصحابه على أن الموت لا يُطلب لذاته، ولا يُخاف منه خوفاً يبيع الإنسان به دينه، بل يُستعد له بالعمل، ويُفهم في ضوء الآخرة. ومن عرف الموت بهذا المعنى صار أكثر جديةً في الحياة، لا أقل؛ لأنه يعلم أن كل لحظة أمانة، وأن كل عملٍ محفوظ، وأن العمر ليس ملكاً للهوى.

ولهذا كان المؤمنون الأوائل عجيبين في توازنهم: يحبون الحياة لأنها ميدان طاعة، ولا يعبدونها؛ يكرهون الموت بمعنى الفطرة البشرية، ولا يفرون من

الحق خوفاً منه؛ يعملون للدنيا بقدرها، ويعملون للآخرة لأنها دار القرار. وهذه القوة الهادئة لا يصنعها خطاب التحفيز، بل يصنعها الإيمان باليوم الآخر. فالآخرة في البناء النبوي ليست فكرة مؤجلة فقط، بل طاقة حاضرة تُعيد ترتيب الحياة الآن؛ تمنع الظلم لأن هناك حساباً، وتخفف المصائب لأن هناك جزاءً، وتثبت المظلوم لأن هناك عدلاً إلهياً، وتخيف الظالم لأن المهلة ليست إهمالاً.

ومن أعظم ما بنى النبي ﷺ في الداخل معنى الأخوة الإيمانية. فقد جاء الإسلام إلى مجتمعٍ تمزقه القبائل والولاءات الضيقة، فجعل رابطة الإيمان فوق رابطة الدم حين تتعارض معها، وجعل المسلم أخا المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. وهذا التحول لا يقع في الأوراق، بل في القلب؛ أن ينتقل الإنسان من سؤال: من قبيلتي؟ إلى سؤال: من أخي في الله؟ ومن منطق: انصر قريبك ظالماً أو مظلوماً بمعنى العصبية، إلى معنى نصرته الظالم بكفه عن ظلمه. لقد أعاد النبي ﷺ تعريف النصره نفسها؛ لم تعد وقوفاً أعمى مع صاحبك، بل إعانةً له على الحق، ومنعاً له من الباطل.

وهذا من أدق وجوه بناء الإنسان: تحرير الحب والولاء من العمى. فالإنسان بطبعه يميل إلى أهله وجماعته، وقد يحمله الميل على الظلم. فجاء النبي ﷺ ليزكي هذا الميل، لا ليمحوه؛ أن تحب قومك، لكن لا تظلم لأجلهم؛ أن تصل رحمك، لكن لا تجعل الرحم فوق الحق؛ أن تنصر أخاك، لكن لا تنصر باطله؛ أن تنتمي إلى أمة، لكن لا تحول الانتماء إلى كبرٍ على الخلق. وهكذا دخلت العواطف الطبيعية في ميزان الوحي، فلم تعد فوضى، ولم تُلغَ أيضاً.

ومن البناء الداخلي كذلك تربية الإنسان على العمل لا على الأحلام. فقد كان النبي ﷺ يربّي أصحابه على الدعاء والعمل، والتوكل والأخذ بالأسباب، واليقين والصبر، لا على أمني فارغة تنتظر النصر بلا إعداد، أو تنتظر الهداية بلا مجاهدة، أو تنتظر الرزق بلا سعي. وهذا التوازن من أخص خصائص التربية النبوية؛ فالمؤمن لا يعتمد على الأسباب اعتماداً ينسى الله، ولا يترك الأسباب تركاً يسيء الأدب مع سنن الله. إنه يعمل بقلب متوكل، ويتوكل بيدٍ عاملة.

وهذه التربية أنتجت إنساناً إيجابياً بالمعنى العميق، لا بالمعنى السطحي للكلمة؛ إنساناً لا يكتفي بالتحسر على الفساد، بل ينهى عنه بقدر استطاعته؛ ولا يكتفي بانتظار الفرج، بل يسعى في أسبابه المشروعة؛ ولا يكتفي بالعلم، بل يحوله إلى عمل؛ ولا يكتفي بالحب، بل يجعله اتباعاً؛ ولا يكتفي بالإيمان المجمل، بل يترجمه في الخلق والعبادة والمسؤولية. لذلك كان الصحابة جيلاً عاملاً، لا جيل شعارات؛ يحملون القرآن في صدورهم، ثم يحملونه في مواقفهم.

إن من أخطر ما يصيب التدين أن يبقى في منطقة الشعور، لا ينزل إلى الإرادة. قد يتأثر الإنسان، ويبكي، ويعجب، ويحب المعاني العالية، لكنه إذا لم تتحول هذه المعاني إلى قرارات وسلوك ومجاهدة، بقيت كأنها نور مرّ على السطح ولم يدخل العمق. والنبي ﷺ كان يبني في أصحابه الإرادة المؤمنة؛ أن يفعلوا ما يعلمون، وأن يصبروا على كلفة الحق، وأن يترجموا الإيمان إلى طاعة. فليس الدين انفعالاً بالحق فقط، بل استجابةً له.

ومن هنا نفهم معنى التربية بالابتلاء في السيرة. فالابتلاء لم يكن حادثاً جانبياً، بل كان جزءاً من صناعة الإنسان. في الابتلاء يظهر الصادق من المدعي، ويتبين ما في القلب، وتتكشف علائق النفس، ويتعلم المؤمن أن الإيمان ليس كلمةً بلا ثمن. وقد ربّى النبي ﷺ أصحابه على فهم الابتلاء لا بوصفه هدمًا لمعنى الرعاية الإلهية، بل بوصفه طريقاً للتمحيص والرفع والتكوين. وهذا لا يعني أن المؤمن يطلب البلاء، بل إذا نزل به تلقاه بالصبر واليقين والعمل المشروع.

إن الإنسان الذي لم يُختبر قد يظن في نفسه ما ليس فيها. فإذا جاء الألم ظهر هل كان يقينه معرفةً راسخة أم شعوراً عابراً، وهل كان توكله حقيقةً أم عبارة، وهل كان رضاه بالله قائماً على النعمة وحدها أم على معرفة الرب في السراء والضراء. والنبي ﷺ ربّى الأمة على أن الطريق إلى الله ليس مفروشاً دائماً بما تحب النفس، بل فيه هجرة، وجهاد، وصبر، وفقد، وانتظار، وتأخر نصر، وأذى، ومجاهدة للهوى. وكل ذلك ليس خروجاً عن الرحمة، بل داخلٌ في هندسة التزكية.

ومن البناء الداخلي أيضاً أن النبي ﷺ علّمهم فقه الخطأ والرجوع. فالإنسان ليس معصوماً، والجماعة المؤمنة ليست جماعة ملائكية، وإنما كمالها في أنها إذا أخطأت رجعت، وإذا ذُكرت اتعظت، وإذا زلت لم تجعل الزلل أصلاً جديداً. وقد كان القرآن ينزل مصححاً ومربيّاً، وكان النبي ﷺ يعلم، ويعفو، ويؤدب، ويقيم الميزان. وهذا مهم؛ لأن بعض الناس إذا تحدثوا عن الجيل الأول تخيلوه خارج البشرية، فإذا وجدوا في الواقع ضعفاً يؤسوا. والصحيح

أن التربية النبوية صنعت أكمل جيلٍ بشري، لا جيلًا خارج معنى البشر؛ كمالهم في صدق استجابتهم لله، لا في أنهم لم يمتحنوا بضعفٍ قط.

وهذا يعيدنا إلى أصل الكتاب: الكمال المحمدي نفسه لم يكن انفصالًا عن البشرية، وكذلك التربية المحمدية لم تكن إنكارًا لطبيعة الإنسان، بل تهذيبًا لها. والنبى ﷺ لم يبين أصحابه بإنكار مشاعرهم، بل بتوجيهها؛ لم ينكر خوفهم، بل علّمهم الشجاعة والتوكل؛ ولم ينكر حبهم، بل زكاه؛ ولم ينكر غضبهم، بل ضبطه؛ ولم ينكر حاجتهم إلى الدنيا، بل وضعها في موضعها؛ ولم ينكر خطأهم، بل فتح لهم باب التوبة. وهذا هو الفرق بين التربية الحكيمة والتربية القاسية: الحكيمة تعرف الإنسان ثم ترفعه، والقاسية تحتقر ضعفه فتزيده كسرًا.

ومن أعظم ما في هذا البناء أنه جعل كل فردٍ يشعر أن له موقعًا في الرسالة. لم يكن الدين شأن النخبة وحدها، ولا العبادة شأن المنعزلين، ولا الدعوة شأن الخطباء فقط، بل كل مسلمٍ مسؤولٌ بقدر علمه وقدرته وموقعه. المرأة لها موقع، والفقير له موقع، والعبد المحرر له موقع، والشاب له موقع، والعالم له موقع، والمجاهد له موقع، والمنفق له موقع، والذاكر له موقع، والصابر له موقع. هذه الشمولية أعادت للإنسان قيمته؛ فلم يعد الفضل حكرًا على أصحاب النسب والمال، بل صار الباب مفتوحًا بالتقوى والعمل الصالح.

وهذا من أعظم وجوه البناء الداخلي: أن يشعر الإنسان أن الله يراه ويقبله إذا صدق، ولو لم يكن له في مقاييس الناس وزنٌ كبير. لقد أخرج النبي ﷺ الناس من عبودية المكانة الاجتماعية إلى كرامة العبودية لله. فالضعيف ليس ضعيفًا

عند الله إذا كان تقياً، والغني ليس عظيماً عند الله بماله، والقريب من السلطة ليس أقرب إلى الحق بمجرد قربيه، والمجهول في الأرض قد يكون معروفاً في السماء. وهذا المعنى يحرر الإنسان من ذل المقارنات الاجتماعية، ويجعله يطلب قيمته من الله لا من عيون الخلق.

ولذلك كان المجتمع الذي بناه النبي ﷺ مجتمعاً تتغير فيه مقاييس الشرف. لم يعد الشرف في الدم وحده، ولا في المال، ولا في القوة، بل في التقوى. وهذا التحول إذا دخل في القلب أنهى كثيراً من أمراض البشر: الكبر، والحسد، والاحتقار، والطبقية، وعبادة الشهرة. وحين يعلم الإنسان أن أكرم الناس عند الله أتقاهم، لا أعلاهم صوتاً، ولا أكثرهم مالاً، ولا أوسعهم جمهوراً، فإنه يعيد ترتيب سعيه كله. وهذا هو البناء الحقيقي: تغيير ما يسعى إليه الإنسان.

ومن هنا يمكن أن نقرأ السيرة النبوية كلها بوصفها مشروع تحويلٍ لمركز الإنسان:

من القبيلة إلى الأمة،

ومن الصنم إلى الله،

ومن الثأر إلى العدل،

ومن الفخر إلى التقوى،

ومن الخوف من الناس إلى مراقبة الله،

ومن طلب الذكر إلى الإخلاص،

ومن عبادة الدنيا إلى العمل للآخرة،

ومن الانفعال إلى الصبر،

ومن القوة الجاهلية إلى القوة المؤدبة،

ومن الرحمة العمياء إلى الرحمة الهادية،  
ومن الفرد المنغلق إلى المؤمن الشاهد.

ولذلك فإن أعظم أثر للنبي ﷺ ليس أنه غيّر خريطة الجزيرة فقط، بل أنه غيّر خريطة النفس الإنسانية. الخرائط السياسية تتبدل، والدول تقوم وتسقط، والأسماء تصعد وتهبط، لكن بناء الإنسان إذا تأسس على الوحي بقي أثره ممتدًا في القرون. لقد خرج من تحت يده ﷺ جيلٌ صار معيارًا في الصدق والبذل واليقين، لا لأنهم كانوا يملكون طبيعةً أخرى غير طبيعتنا، بل لأنهم تلقوا الوحي من مشكاة النبوة، واستجابوا له استجابةً صنعت منهم نماذج عالية.

وهذا يضع أمامنا سؤالاً خطيرًا: لماذا نقرأ السيرة؟ هل نقرأها للإعجاب بجيلٍ مضى فقط، أم لفهم كيف يُبنى الإنسان؟ إذا قرأناها للإعجاب وحده بقيت بيننا وبينها مسافةٌ وجدانية جميلة لكنها غير كافية، أما إذا قرأناها لبناء النفس، صارت السيرة مرآةً ومشروعًا. نسأل عند كل موقف: ما الذي بناه النبي ﷺ هنا في أصحابه؟ أيُّ معنى نقله من الضعف إلى القوة؟ أيُّ صنمٍ داخلي كسره؟ أيُّ خلقٍ ثبته؟ أيُّ ميزانٍ أقامه؟ أيُّ خوفٍ حرره؟ أيُّ رجاءٍ وجهه؟

إن الأمة اليوم لا تحتاج فقط إلى أن تعرف أن النبي ﷺ عظيم، فهذا أصلٌ مستقرٌ في قلب كل مؤمن، بل تحتاج أن تدخل في منهجه في صناعة الإنسان. تحتاج إلى تربيةٍ تعيد بناء الداخل، لا إلى شعاراتٍ عاليةٍ تحملها نفوسٌ هشة. تحتاج إلى إيمانٍ يضبط القوة، وعلمٍ يزكي العقل، وعبادةٍ تثمر خلقًا، ووعيٍ

يردّ الدنيا إلى حجمها، وآخرة حاضرة في القرار، ومراقبة لله تحرس الخلوات، وإخلاص يطهر المشاريع من عبادة الذات.

فلا نهضة بلا إنسان مبني من الداخل.

ولا إصلاح بلا ضمير يخاف الله.

ولا علم نافع بلا إخلاص.

ولا قوة آمنة بلا عبودية.

ولا حرية كريمة بلا توحيد.

ولا أخلاق ثابتة بلا آخرة.

ولا أمة شاهدة بلا أفراد صادقين.

وهذا هو ما فعله النبي ﷺ: لم يبدأ من القشرة، بل من اللب؛ لم يزيّن الإنسان من الخارج فقط، بل أدخل النور إلى قلبه؛ لم يصنع هيئةً دينيةً بلا روح، بل صنع روحًا تُنتج الهيئة والسلوك والموقف؛ لم يكتفِ بتغيير الكلمات، بل غيّر معانيها في الداخل؛ لم يقل للإنسان فقط: افعل ولا تفعل، بل عرّفه بالله حتى يعرف لماذا يفعل ولماذا يترك.

وفي نهاية هذا الفصل نصل إلى أصلٍ جديد من أصول الكتاب: أن النبي ﷺ لم يكن فقط أكمل إنسان في مقام العبودية، بل كان أعظم مربٍّ للإنسان على العبودية؛ وأن عظمته لا تظهر في كماله الشخصي وحده، بل في قدرته بإذن الله على نقل هذا النور إلى أمة حملته بعده؛ وأن السيرة ليست ماضيًا نرويه، بل منهجًا في بناء الداخل إذا فقهناه.

لقد كان محمد ﷺ يبني الإنسان من المكان الذي يفسد منه أو يصلح: قلبه. فإذا صلح القلب استقامت القوة، وطهرت الرحمة، وصدق العلم، وأمنت القيادة، وجمل البيت، وارتفع العمل، واستتار العقل، واطمأنت النفس. وإذا فسد القلب، لم تنفعه زخارف القوة، ولا كثرة المعرفة، ولا جمال العبارة، ولا اتساع المشروع.

ذلك هو سر التربية المحمدية:

أنها تبدأ من التوحيد، وتنتهي إلى إنسانٍ يمشي في الأرض بقلبٍ موصولٍ بالسماء، لا يعبد إلا الله، ولا يخاف إلا الله خوف عبادة، ولا يرجو إلا الله رجاءً مطلقاً، ويعامل الخلق بعد ذلك بميزان الرحمة والعدل، كأن الوحي أعاد خلقه من جديد.

وهكذا كان النبي ﷺ رحمةً للعالمين:

لم يرحم الإنسان بتخفيف مطالبه العليا، بل رحمه بأن أعاده إلى أعظم مطالبه؛

لم يرحمه بأن تركه في ضعفه، بل رحمه بأن علّمه كيف ينهض؛  
لم يرحمه بأن ألغى مسؤوليته، بل رحمه بأن دلّله على طريق النجاة؛  
لم يرحمه بأن زيّن له الأرض، بل رحمه بأن فتح له باب السماء.

ومن هنا نفهم أن أعظم وفاءٍ للنبي ﷺ ليس أن نصفه فقط، بل أن نستجيب له؛ ليس أن نمدحه وحده، بل أن نسمح لهديه أن يعيد بناءنا من الداخل؛ ليس أن نكثر الكلام عن عظّمته، بل أن نفتش عن أثر هذه العظمة في أخلاقنا، وبيوتنا، وقوتنا، ورحمتنا، وكتابتنا، وقراراتنا، وخلواتنا.

فمن لم يبينه النبي ﷺ من الداخل، بقيت صلته بالسيرة صلة إعجابٍ لا صلة اقتداء.

ومن دخل مدرسة البناء المحمدي، بدأ يعرف أن الإنسان لا يولد كاملاً، ولكنه يُزكى؛ ولا ينجو بمجرد الانتساب، ولكنه يستجيب؛ ولا يعظم بكثرة ما يملك، بل بصدق ما يعبد؛ ولا يصير حرّاً حقّاً حتى يكون عبداً لله وحده.

## الفصل السابع

### مُحَمَّدٌ ﷺ فِي عَيْنِ عَدُوِّهِ

ليست شهادة العدو أصلاً في إثبات مقام النبي ﷺ، فإن مقامه ثابتٌ بالوحي قبل أن ينطق به منصفٌ أو يجحده معاند، وقد رفع الله ذكره، وأشهد المؤمنين على نبوته، وجعل القرآن برهان صدقه، وجعل سيرته من أعظم دلائل رسالته؛ ولكن شهادة العدو تكشف شيئاً آخر لا ينبغي إغفاله: تكشف أن النور إذا بلغ غايته قد يُكره الخصومة على الاعتراف بقدره، ولو بقيت مكابرةً عن الإيمان به، وأن الخلق إذا بلغ صفاءه الأعلى صار حقيقةً ضاغطةً على من يراه، لا يستطيع أن ينكرها إلا بمكابرةٍ فجأةٍ أو هوى ظاهر.

إن أعداء النبي ﷺ لم يكونوا يجهلون شخصه قبل البعثة. لم ينشأ بينهم غامضاً، ولم يهبط عليهم من فراغ، ولم يكن رجلاً مجهول السيرة حتى يلتبس عليهم أمره، بل عاش بينهم عمراً طويلاً قبل أن يقول لهم: إني رسول الله إليكم. عرفوا صدقه قبل أن يعارضوه، وأمانته قبل أن يتهموه، ونقاء سيرته قبل أن يحاربوا دعوته. ولذلك كانت معارضتهم له بعد البعثة ليست معارضة رجلٍ غريبٍ لم تُعرف حقيقته، بل معارضة حقٍّ جاء على لسان رجلٍ كانوا يعرفون أنه لا يكذب على الناس، فكيف يكذب على الله؟

وهنا يبدأ أحد أعمق وجوه الحجة في السيرة: أن الذين كذبوه في دعوته لم يستطيعوا أن يأتوا من سيرته بما يصلح أساساً لتكذيبه. لقد عجزوا أن يقولوا:

عرفناه كذابًا، أو خائنًا، أو متقلبًا، أو طالب جاهٍ قبل الرسالة، أو صاحب هوى يستعمل الدين لمصلحته؛ لأن حياته السابقة كانت تقطع الطريق على هذه التهمة. كانوا يسمونه الصادق الأمين، ثم لما جاءهم بالوحي صار صدقه نفسه حرجًا لهم؛ لأن المشكلة لم تكن في شخصه، بل في الرسالة التي هدمت مراكزهم النفسية والاجتماعية والدينية.

إن العدو حين يعترف بخلق خصمه لا يفعل ذلك غالبًا تبرعًا بالإنصاف، بل لأن الحقيقة صارت أثبت من أن تُدفع. ومن هنا كان توقير بعض أعدائه له ﷺ، أو اعترافهم بصدقه، أو عجزهم عن الطعن في أخلاقه، شاهدًا على أن النبوة لم تأتِ على سيرةٍ ملتبسة، بل على سيرةٍ مهيأةٍ للاصطفاء، وأن الله سبحانه اختار لحمل خاتمة الرسالة من كان في الناس أصدقهم، وأظهرهم، وأعلاهم نفسًا، وأعظمهم أمانةً.

وليس معنى ذلك أن النبوة تُكتسب بالأخلاق، فالنبوة اصطفاؤه من الله، لا ينالها أحدٌ بكسبه، ولكن من حكمة الله أن يجعل حامل الرسالة في مقامٍ من الطهارة والصدق يقطع عذر المكذابين، فلا يستطيعون أن يقولوا: إن الذي يدعونا إلى الله كان قبل ذلك معروفًا بما يهدم دعوته. لقد كان ﷺ قبل الوحي محفوظًا من خزايا الجاهلية، مستقيم الفطرة، عظيم المروءة، بعيدًا عن عبادة الأصنام، لا يشارك قومه في باطلهم، حتى إذا نزل عليه الوحي كان الماضي شاهدًا للرسالة لا عائقًا عنها.

إن الخصومة مع النبي ﷺ لم تبدأ من شكٍ أخلاقيٍّ في شخصه، بل من صدامٍ وجوديٍّ بين الوحي والجاهلية. لقد جاءهم ﷺ بدينٍ لا يترك الأصنام في

أماكنها، ولا العصبية في سلطانتها، ولا الأموال في ظلمها، ولا الآباء في قداسة عمياء، ولا الزعماء في حصانة فوق الحق. جاءهم بما يساوي بين الناس أمام الله، ويجعل التقوى ميزان الكرامة، ويكسر احتكار السادة للمعنى، وينقل الولاء من القبيلة إلى الله، ويجعل العبد والحر، والغني والفقير، والقريب والبعيد، جميعاً تحت سلطان التوحيد. ولذلك لم تكن المشكلة عند كثير منهم: هل محمد صادق؟ بل كانت: ماذا سيبقى من عالمنا إذا صدقناه؟

وهذا من أخطر ما ينبغي فهمه: قد يعرف الإنسان الحق ثم يعاديه، لا لأنه لم يره، بل لأنه رآه ورأى معه انهيار مصالحه وأوهامه وصورته عن نفسه. فليست كل خصومة مع الحق وليدة جهل بريء؛ بعضها وليد معرفة مكبوتة، وبعضها وليد خوف من تكاليف الإيمان، وبعضها وليد كبر يمنع صاحبه من أن يكون تابعاً بعد أن كان متبوعاً، وبعضها وليد مصلحة تخشى أن تفقد سلطانتها إذا أشرق النور.

ومن هنا كانت شهادة العدو للنبي ﷺ ذات معنى مزدوج: فهي من جهة تكشف عظمة خلقه الذي لم تستطع الخصومة أن تطمسها، ومن جهة أخرى تكشف مأساة النفس حين ترى الحق ثم تعجز عن الخضوع له. فالإنسان قد يبلغ به الكبر أن يوقر الحق في سره ويعاديه في علنه، وأن يعرف صدق الرسول ثم يخاف من تبعات التصديق، وأن يسلم بصفاء السيرة ثم يرفض مقتضى الرسالة. وهذه ليست مشكلة عقل فقط، بل مشكلة قلب.

لقد كان النبي ﷺ في عين عدوه كبيراً، لكن كثيراً من أعدائه لم يريدوا أن يتحول هذا التوقير إلى اتباع. والتوقير بلا اتباع قد يكون حجة على صاحبه

لا عذراً له؛ لأنه يدل على أنه أدرك بعض النور، ثم أثر البقاء خارج دائرته. ولهذا لا ينبغي أن نغترّ بمجرد الإعجاب بالنبي ﷺ إذا لم يقد إلى الإيمان به واتباعه. فقد يُعجب به منصفٌ من جهة الأخلاق أو القيادة أو الأثر التاريخي، ثم يقف عند هذا الحد؛ أما المؤمن فيرى ذلك كله داخلاً في مقام الرسالة، فيحبه لأنه رسول الله، ويوقره لأنه اصطفاه الله، ويتبعه لأن الله أمر باتباعه.

إن كثيراً من الدراسات الحديثة قد تتحدث عن عظمة النبي ﷺ بوصفه قائداً، أو مصلحاً، أو مشرعاً، أو رجل دولة، أو عبقرياً اجتماعياً، وهذه أوصافٌ قد تلامس بعض أثره، لكنها لا تبلغ حقيقته. فالذي يرى الجبل من سفحه لا يجوز أن يزعم أنه أحاط بذروته. محمد ﷺ أعظم من هذه التصنيفات؛ لأنه ليس نتاج عبقرية بشرية صاعدة من الأرض، بل رسولٌ جاءه الوحي من عند الله. نعم، ظهرت في حياته أعظم صور القيادة والإصلاح والتربية والسياسة والأخلاق، ولكنها ليست أصل حقيقته، بل آثار رسالته وعبوديته واصطفائه.

ومن هنا ينبغي أن نحذر من قراءة تُنصف النبي ﷺ ظاهرياً ثم تُفرغه من مقام النبوة. فإن من يقول: كان عظيماً لأنه وحد العرب، أو لأنه صنع أمة، أو لأنه أقام دولة، أو لأنه غير التاريخ، قد قال بعض الحق من جهة الأثر، لكنه إن وقف هنا فقد حجب المنبع. فالنبوة لا تُفهم من نتائجها التاريخية وحدها، بل من مصدرها الإلهي. ولو لم يكن محمد ﷺ رسول الله، لما كانت عظمتُه على هذا النحو، ولا أثره على هذا الامتداد، ولا أخلاقه على هذا الكمال، ولا شريعته على هذا الاتزان، ولا سيرته على هذا العمق الذي لا ينفد.

إن شهادة العدو العاقل أو المنصف يمكن أن تكون نافعةً في باب الجدل مع من لا يؤمن، لكنها ليست مركز اليقين عند المسلم. المسلم لا ينتظر اعتراف الخصوم حتى يوقّر نبيه، ولا يستعير معيار العظمة من خارج الوحي، ولا يفرح بشهادة المنصفين كأنها أضافت إلى مقام النبي ﷺ ما لم يكن له. إنما يفرح بها من جهة أنها تكشف أن الحق ظاهرٌ حتى لغير أهله، وأن من نظر بإنصافٍ لم يملك إلا أن يرى من عظمة هذا الرسول ما يدهشه، وإن لم يدرك كل الحقيقة.

وهنا فرقٌ دقيق بين أن نجعل شهادة العدو دليلاً تابعاً، وأن نجعلها أصلاً حاكماً. فإذا جعلناها دليلاً تابعاً استعملناها في بيان أن السيرة النبوية بلغت من الصفاء ما ألزم الخصوم بالاعتراف. أما إذا جعلناها أصلاً حاكماً فقد نقلنا مركز التقييم من الوحي إلى عيون الآخرين، وهذا خللٌ في الأدب والمعرفة. فالنبي ﷺ عظيم لأن الله عظمه، ومصطفى لأن الله اصطفاه، وصادق لأن الله أرسله، ورحمة لأن الله وصفه بذلك، ثم تأتي شهادات الخلق بعد ذلك كأصداءٍ بعيدةٍ لما ثبت قبلها.

ومع ذلك فإن في موقف العدو من النبي ﷺ درساً عميقاً للدعاة والمصلحين والكتّاب: أن طهارة السيرة جزءٌ من قوة الدعوة. فالداعية الذي يدعو إلى الحق ثم يهدمه بسلوكه يجعل خصومه يجدون باباً للطعن فيه، وربما للطعن في الحق الذي يحمله عند ضعاف البصيرة. أما النبي ﷺ فقد كان سلوكه مؤيداً لرسالته، حتى لم يجد أعداؤه في شخصه الشريف مدخلاً حقيقياً، فلجؤوا إلى التهم التي تكشف عجزهم أكثر مما تكشف شيئاً فيه: ساحر، شاعر، مجنون،

كاهن؛ وهي اتهامات متناقضة، لا يجمعها إلا محاولة الهروب من التهمة الوحيدة التي كانوا يخافون الاعتراف بها: أنه رسول الله حقًا.

إن التهم المتناقضة من علامات إفلاس الخصومة. حين لا يستطيع الخصم أن يواجه الحقيقة كما هي، يكثر من الأسماء حولها، لعل كثرة الأسماء تحجب جوهرها. لقد سمعوا القرآن، وعرفوا أنه ليس شعراء، ولا كهانة، ولا سحرًا بالمعنى الذي يزعمون، ولكنهم احتاجوا إلى كلمة تُسكّن قلقهم وتمنع الناس من الإصغاء. وهكذا يفعل الباطل غالبًا: لا يهزم الحق بالحجة، بل يحاول تشويهه بالعنوان. فإذا لم يستطع أن يردّ النور، أطلق عليه اسمًا منفّرًا.

ومن هنا نفهم أن عداؤهم للنبي ﷺ كان أحيانًا اعترافًا مقلوبًا. فشدة المقاومة قد تدل على شدة الخطر الذي يمثله الحق على بنية الباطل. لو كان النبي ﷺ مجرد رجلٍ عابر، أو صاحب دعوى ضعيفة، أو متكلمٍ لا أثر له، لما استنفرت قريش كل هذه الطاقة في صده. لكنهم شعروا أن كلمته ليست كلمة تمضي، بل أصلٌ جديدٌ يعيد ترتيب العالم من حولهم؛ وأن «لا إله إلا الله» ليست عبارةً تعبديةً محدودةً في المسجد، بل زلزالٌ يضرب الأصنام في الكعبة، والأصنام في النفوس، والأصنام في الأسواق، والأصنام في السياسة والاجتماع.

وهذا يفتح لنا بابًا في قراءة العداوة التاريخية للأنبياء جميعًا: أن خصومة الباطل للوحي ليست خصومةً فكريةً مجردة، بل خصومة وجودية؛ لأن الوحي لا يأتي ليضيف رأيًا إلى الآراء، بل ليحاكم الإنسان إلى الله، وليعيد تعريف السلطة، والقيمة، والحق، والحرية، والعبادة، والمصير. ولذلك يخاف

منه كل من بنى مجده على باطلٍ لا يريد أن يُكشف، أو على ظلمٍ لا يريد أن يُرد، أو على عادةٍ لا يريد أن تُسأل: أحقُّ هي أم ضلال؟

لقد جاء النبي ﷺ إلى قريش فوجدهم يوقرون أشياء كثيرة: النسب، والبيت، والتجارة، والشعر، والمكانة، والزعامة، والآباء؛ فجاء الوحي ليضع كل ذلك تحت ميزان الله. لم يلغِ النسب من حيث هو صلة، لكنه ألغى أن يكون معيار الكرامة. ولم يلغِ التجارة، لكنه طهرها من الظلم. ولم يلغِ الفصاحة، لكنه منعها أن تكون خادمةً للباطل. ولم يلغِ المكانة، لكنه جعلها مسؤولية. ولم يلغِ تاريخ الآباء من حيث الاعتبار، لكنه رفض أن يكون الآباء حجةً على الوحي. وهنا اشتعلت الخصومة؛ لأن الجاهلية لا تغضب حين تُترك رموزها مزينةً بلا سؤال، لكنها تغضب حين يُقال لها: إن الحق أعلى من رموزك.

ولهذا كان من أعدائه ﷺ من يوقر شخصه ويكره رسالته؛ وهذه مفارقةٌ تكشف عمق الأزمة. قد يقول قائلهم في داخله: هو صادق، أمين، عظيم الخلق؛ لكن رسالته تهدد بنية المصالح التي أعيش عليها. ومن هنا نعرف أن الأخلاق وحدها، مع عظمتها، لا تكفي إذا لم تفتح القلب للحق. فقد يرى الإنسان خلق النبي ﷺ ثم يعجبه، لكن المطلوب ليس الإعجاب وحده، بل التسليم للذي جاء به. إن جمال النبي ﷺ الخلقي بابٌ إلى رسالته، لا بديلٌ عنها.

وفي المقابل، كان من أعدائه من تحوّل توقيره إلى إيمان، وحين دخل الإسلام لم يدخل غريباً عن معرفةٍ سابقة، بل كأن ما كان في قلبه من اعترافٍ محجوب وجد أخيراً طريقه إلى التسليم. وهذا يعلمنا أن بعض القلوب تحتاج إلى زمن، وأن الدعوة لا تُقاس بنتيجتها العاجلة دائماً. قد يسمع الإنسان الحق اليوم

فيرفضه، ثم يبقى فيه أثرٌ مستترٌ حتى يفتحه الله بعد حين. والنبي ﷺ كان يصبر لأن قلب النبي أوسع من استعجال الدعاة، ولأنه يعلم أن الهداية بيد الله، وأن دور الرسول البلاغ والبيان والصبر، لا امتلاك القلوب.

وهذا من أعظم ما يظهر في علاقته ﷺ بأعدائه: أنه لم يكن يرى فيهم مجرد خصومٍ ينبغي سحقهم، بل نفوساً يُرجى لبعضها أن تهتدي، وإن طال الطريق. لقد كان يتألم لإعراضهم، لا لأنهم أسأؤوا إليه فقط، بل لأنهم يعرضون عن نجاتهم. وهذا فرقٌ هائل بين خصومة الأنبياء وخصومات البشر؛ البشر كثيراً ما يطلبون هزيمة الخصم، أما الأنبياء فيطلبون هدايته ما دام باب الهداية مفتوحاً. البشر يفرحون بانكسار من عاداهم، أما النبي ﷺ فيفرح برجوع العدو إلى الله.

ومن هنا نفهم سر العفو النبوي في لحظات القدرة. لقد كان يرى في العدو السابق إنساناً يمكن أن يصبح أخاً في الإيمان، وجندياً للحق، وحاملاً للرسالة. ولو كان ينظر إلى أعدائه من خلال ذاكرة الأذى وحدها، لما فتح لهم باب المستقبل. لكنه ﷺ كان أكبر من جراحه الشخصية؛ لأنه رسولٌ ينظر إلى الإنسان من جهة ما يمكن أن يصير إليه إذا مسّه الهدى، لا من جهة ما كان عليه فقط. ولذلك دخل في الإسلام من كان قبل ذلك شديد العداوة، فلما أسلم صار من أهل النصر والبذل، وكأن الرحمة النبوية كانت تعرف أن بعض المعادن لا تظهر إلا بعد أن تُغسل من غبار الجاهلية.

هذا لا يعني أن النبي ﷺ كان ينسى خطر العداوة، أو يلغي الحذر، أو يسلم أمر الدعوة للخصوم، بل يعني أنه كان يجمع بين الواقعية والرحمة؛ يحذر

حيث يجب الحذر، ويقاقل حيث يجب القتال، ويعفو حيث يكون العفو أهدى، ويفتح باب التوبة حيث يصدق الرجوع. فليس في السيرة سذاجة عاطفية، ولا قسوة انتقامية، بل ميزانٌ نبويٌّ رفيع: لا تأمن الباطل حتى يكفّ عن عدوانه، ولا تيأس من الإنسان حتى يغلق على نفسه باب الهداية.

إن رؤية النبي ﷺ في عين عدوه تكشف أيضاً عن نوع آخر من العظمة: عظمة الثبات أمام التشويه. فقد قيل فيه ما قيل، وحورب، وسُخر منه، وأوذى، وحوصرت دعوته، واتهم بأشنع ما لا يليق بمقامه، ومع ذلك لم يتحول إلى رجل مشغول بتبرئة صورته الشخصية أكثر من بلاغ رسالته. لم يجعل مركز حياته ردّ الشتائم، ولا مطاردة كل افتراء، ولا الانشغال الدائم بموقعه في عيون الخصوم، بل مضى في طريق البلاغ، وترك الحق يثبت نفسه، وترك الأيام تكشف كذب الزبد إذا ذهب جفاءً وبقاء ما ينفع الناس في الأرض.

وهذا درسٌ كبير لكل صاحب رسالة أو قلم: ليس كل تشويه يستحق أن يسرق عمرك، وليس كل افتراء ينبغي أن يجعلك تترك البناء لتتشغل بالدفاع عن صورتك. نعم، قد يجب البيان أحياناً، وقد يلزم الرد في موضعه، لكن النفس إذا صارت أسيرة لعيون الخصوم فقدها مشروعاتها، وصارت تدور حول من يعاديها بدل أن تدور حول الحق الذي تحمله. والنبي ﷺ يعلمنا أن الصدق العميق أقوى من التشويه الطويل، وأن السيرة النقية لا تضرها غيومٌ عابرة من افتراء المبطلين.

لقد كان أعداؤه يعادونه، لكنهم لم يستطيعوا أن يوقفوا أثره؛ لأن الأثر الذي يأتي من الله لا يملكه البشر. حاربوا الدعوة في مكة، فخرجت إلى المدينة.

ضيقوا على المؤمنين، فصارت المحنة مصنعاً للرجال. أرادوا عزل النبي ﷺ، فانتسع ذكره. أرادوا إسكات القرآن، فصار يتلى في المشارق والمغارب. وهذه ليست قراءة انتصاريةً سطحيةً للتاريخ، بل بيانٌ لسنةٍ إلهية: أن الحق إذا حمله الصادقون، فقد يُبتلى، وقد يتأخر نصره، وقد يشتد عليه الخناق، لكنه يملك من عناصر البقاء ما لا يملكه الباطل، لأن الباطل يعيش على الظروف، والحق يعيش على الوعد الإلهي والصدق والرسوخ.

ومن هنا فإن موقف العدو من النبي ﷺ يعلمنا أن العظمة الحقيقية ليست أن لا تُعادى، بل أن تبقى على الحق وأنت تُعادى. فليس كل محبوبٍ عظيمًا، وليس كل مرفوضٍ باطلاً. قد يجتمع الناس على محبة ما يوافق أهواءهم، وقد يعادون ما ينقذهم لأنه يطالبهم بما يكرهون. والنبي ﷺ كان محبوبًا عند من عرف الحق واتبعه، ومبغوضًا عند من رأى في الحق تهديدًا لهواه. فلا ينبغي لصاحب الحق أن يجعل قبول الناس المطلق مقياسًا لصدقه، ولا عداوتهم المطلقة دليلًا على خطئه، بل الميزان هو الوحي والحق والعدل.

إن أعداء النبي ﷺ وقفوا أمامه على طبقات: منهم من جحد كبرًا، ومنهم من جحد خوفًا على المكانة، ومنهم من جحد اتباعًا للسلادة، ومنهم من جهل ثم تبين، ومنهم من أذى ثم تاب، ومنهم من عرف ثم عاند حتى هلك. وهذه الطبقات تكشف تعقيد النفس البشرية. ليست العداوة كلها لونًا واحدًا، ولا القلوب كلها مغلقةً بالدرجة نفسها. ولذلك كان التعامل النبوي متعددًا بحسب الأحوال: دعوة، وصبر، وحلم، وحجة، وهجرة، ومعاهدة، وجهاد، وعفو، وقبول توبة. وهذا التنوع نفسه من كمال الرسالة؛ لأن الواقع لا يُدار بمزاجٍ واحد، بل بحكمةٍ تضع كل حالٍ في موضعه.

ومن أعمق ما نستفيده هنا أن النبي ﷺ لم يسمح لعداوة أعدائه أن تشوه عدله. فالإنسان إذا عودي قد يتخفف من العدل، ويقول لنفسه: لقد ظلموني، فلا حق لهم عندي. أما الهدي النبوي فيعلم أن ظلم غيرك لا يبيح لك أن تظلم، وأن عداوته لا تسقط إنسانيته، وأن الخصومة لا تبيح الكذب، وأن الحرب لا تبيح الغدر، وأن البغض لا يبيح الجور. وهذه مرتبة عالية لا يبلغها إلا قلبٌ يراقب الله أكثر مما يراقب جراحه.

وهذا أيضاً من دلائل النبوة؛ لأن النفوس العادية قد تُخرج أسوأ ما فيها عند الخصومة، أما النبي ﷺ فكانت الخصومة تكشف عدله كما تكشف المحبة رحمته. فهو لا يكون عادلاً مع أصحابه فقط، بل مع من يخالفه؛ ولا يكون وفياً لمن يحبه فقط، بل يفي بالعهد ولو كان مع غير مسلم؛ ولا يصدق حين يكون الصدق لصالحه فقط، بل الصدق عنده عبودية. وهذا هو الفرق بين الأخلاق النسبية والأخلاق الربانية. الأخلاق النسبية تتبدل بحسب القرب والبعد، والمصلحة والعداوة، أما الأخلاق الربانية فمحكومة بأمر الله.

وإذا كان العدو قد رأى هذه العظمة، فإن السؤال الذي ينبغي أن نخافه نحن المحبين: هل نراها كما ينبغي؟ قد يوقر العدو النبي ﷺ من جهة واحدة، فهل يجوز للمؤمن أن يظل توقيره وجدانياً دون اتباع؟ قد يعترف المنصف الأجنبي بأثره في التاريخ، فهل يليق بالمسلم أن لا يظهر أثره في خلقه وبيته وعدله ورحمته؟ إن خطر المسلم ليس في أنه يجهل عظمة النبي ﷺ نظرياً، بل في أن تتحول هذه العظمة عنده إلى مادة مدحٍ لا منهج حياة. وحين يكون العدو منصفاً في جانب، ثم يكون المحب مقصراً في الاتباع، فذلك موضع خجلٍ لا موضع زهو.

إن النبي ﷺ لا يحتاج منا إلى مديحٍ مجرد، بل نحن الذين نحتاج أن نتربى بمدحه. نحتاج أن يكون ذكره حياةً فينا، لا صوتاً على ألسنتنا فقط. نحتاج أن نقرأ كيف رآه عدوه، ثم نسأل: كيف يرانا الناس ونحن ننتسب إليه؟ هل يرون فينا شيئاً من صدقه؟ من رحمته؟ من عدله؟ من تواضعه؟ من أمانته؟ أم يرون انتماءً لفظياً لا يشبه صاحبه؟ فإن من أعظم الظلم أن يكون الانتساب إلى النبي ﷺ واسعاً في الكلام، ضيقاً في الأخلاق.

وهنا تظهر مسؤولية الأمة أمام العالم. لقد كان النبي ﷺ في عين عدوه موقراً بخلقه، فهل الأمة التي تزعم اتباعه تجعل من أخلاقها باباً يعرف الناس منه شيئاً من جماله؟ لا بمعنى أن الأمة تمثل مقامه الكامل، فهذا لا يكون لأحد بعده، ولكن بمعنى أن أتباعه ينبغي أن يكونوا شهداء على هديه بقدر استطاعتهم. فإذا رأى الناس من المسلمين ظلمًا، أو كذبًا، أو قسوة، أو غدرًا، أو فوضى، أو جفافًا، لم يكن ذلك نقصًا في النبي ﷺ وحاشاه، بل نقصًا في أتباع لم يحملوا من نوره ما يجب عليهم.

ومن هنا فإن الدفاع عن النبي ﷺ لا يكون بالغضب له وحده، مع أن الغيرة عليه واجبةٌ بضوابط الشرع، بل يكون قبل ذلك وبعده بإقامة سنته في النفس والحياة. فليس أشد على الباطل من مسلمٍ صادقٍ يشبه هدي نبيه في أخلاقه، وليس أبلغ في النصر من أمةٍ تجعل سيرته مرجعًا في العدل والرحمة والقوة والبيت والسياسة والعلم. أما أن نغضب إذا أسىء إليه ﷺ، ثم نسيء نحن إلى هديه بأفعالنا، فذلك تناقضٌ يحتاج إلى توبةٍ ومراجعة.

إن العدو قد يتوقر أمام الحقيقة إذا رآها صافية، لكننا أحياناً نحجب عنه الحقيقة بتشوهاتنا. والنبى ﷺ لا يُعرف حق المعرفة من خلال ضعف أتباعه، بل من خلال الوحي وسيرته، ولكن أتباعه قد يكونون حجاباً أو جسراً. ومن أعظم الوفاء له أن نكون جسوراً إلى هديه لا حجباً عنه، وأن يعلم الناس من خلالنا أن محمداً ﷺ ربى أمة تعرف الصدق، وتحفظ الأمانة، وترحم الضعيف، وتعذل مع المخالف، وتعبد الله وحده، وتخضع للوحي، ولا تجعل الدين لافتةً للمصلحة أو العصبية.

ولذلك فإن هذا الفصل لا يريد أن يجمع شهادات الخصوم والمنصفين كما تجمع الحواشي، بل يريد أن يستخرج المعنى: أن النبى ﷺ كان من الصفاء بحيث لم تستطع العداوة أن تطمس حقيقته، وكان من العظمة بحيث إن خصومه لم يجدوا في شخصه مدخلاً صحيحاً، وكان من الرحمة بحيث إن كثيراً ممن عادوه وجدوا في عفوه باباً إلى الإيمان، وكان من الثبات بحيث لم تجعله الخصومة يدور حولها، بل ظل يدور حول أمر ربه، يبلغ الرسالة، ويؤدي الأمانة، وينصح الأمة، ويجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

وفي نهاية هذا الفصل نقرر أصلاً جديداً:

أن عظمة النبى ﷺ ليست مرهونةً بمحبة المحب، ولا ناقصةً بجحود العدو، ولكنها من الظهور بحيث إن المحب يجد فيها غذاء إيمانه، والمنصف يجد فيها ما يلزمه بالتوقير، والعدو لا يجد إلى طعنها سبيلاً إلا بالمكابرة والتشويه. فهو ﷺ عظيم في الوحي، عظيم في السيرة، عظيم في القرب، عظيم في الخصومة، عظيم في عين من أحبه، وعظيم في عين من عاداه إذا بقي في قلبه شيء من إنصاف.

لقد وقّره عدوه قبل محبه لا لأن العدو أصدق من المحب، بل لأن الحقيقة كانت أكبر من عداوته.  
وعرفوا صدقه قبل أن يؤمنوا به لا لأن المعرفة كافية، بل لأن الكبر قد يحبس المعرفة عن التسليم.  
وحاربوه مع علمهم بأمانته لا لأن التهمة ثابتة، بل لأن الرسالة هدمت ما كانوا يريدون بقاءه.  
ثم دخل كثيرٌ منهم في دينه بعد عداوة، لا لأن النبي ﷺ تغيّر، بل لأن قلوبهم هي التي فتحت أخيراً لما كان ظاهراً منذ البدء.

هذا هو محمد ﷺ في عين عدوه:  
صدقٌ لا تجد الخصومة فيه كسراً،  
وأمانةٌ لا تطمسها الدعاية،  
ورحمةٌ تفتح للخصم باب الرجوع،  
وعدلٌ لا يفسده الجرح،  
وثباتٌ لا يشغله التشويه عن البلاغ،  
وعظمةٌ لا تحتاج إلى اعتراف العدو، لكنها إذا ظهر شيءٌ من إنصافه  
أكرهته على التوقيع.

ومن هنا ننتقل إلى السؤال الأوسع: لماذا بقي أثره حياً؟ لماذا لم يصبح محمد ﷺ شخصيةً تاريخيةً تُقرأ ثم تطوى، بل بقي في القلوب والصلوات والاتباع والوعي واللغة والأخلاق والحضارة؟ لماذا مضت القرون، وبقي ذكره يتجدد كأنه حاضرٌ في كل جيل؟ ذلك هو باب الفصل القادم: لماذا بقي أثره حياً؟

## الفصل الثامن

### لِمَاذَا بَقِيَ أَثَرُهُ حَيًّا؟

ليست العظمة التي تبقى بعد صاحبها كالعظمة التي تلمع في زمانها ثم تخفت، وليست الذكرى التي تعيش في الكتب كالأثر الذي يعيش في القلوب، وليست الشخصية التي تُدرّس في التاريخ كالشخصية التي تُستحضر في الصلاة، وتُتَّبَع في السلوك، وتُحَبَّ في الضمير، وتظل قادرةً بعد القرون على أن توقظ الإنسان، وتردّه إلى الله، وتعيد ترتيب معنى الحياة في داخله. ومن هنا فإن السؤال عن بقاء أثر النبي ﷺ ليس سؤالاً تاريخياً محضاً، بل سؤالٌ في سرّ الرسالة نفسها: لماذا لم يتحول محمد ﷺ إلى فصلٍ ماضٍ من فصول التاريخ؟ لماذا بقي حضوره الشريف متجدداً في وعي الأمة، كأن الزمان لم يستطع أن يطوي نوره، وكأن القرون كلها لم تفعل إلا أن تزيد الدليل على أن ما جاء به من عند الله لا يشيخ ولا يبلى؟

لقد مات العظماء، وبقيت أخبارهم.

ومات الملوك، وبقيت آثارهم.

ومات الفاتحون، وبقيت خرائطهم.

ومات الفلاسفة، وبقيت كتبهم.

ومات الشعراء، وبقيت قصائدهم.

أما محمد ﷺ فمضى إلى الرفيق الأعلى، وبقي ما هو أعظم من الخبر والأثر والكتاب والخريطة والقصيدة؛ بقيت الهداية التي جاء بها، وبقيت

الأمة التي بناها، وبقي القرآن الذي أنزل عليه يتلى آناء الليل وأطراف النهار، وبقيت سنته ميزاناً للحياة، وبقي اسمه الشريف مقترناً بالشهادة والصلاة والسلام، وبقيت محبته في القلوب لا كحنينٍ إلى ماضٍ بعيد، بل كولاءٍ حيٍّ يتجدد كلما نطق المؤمن: أشهد أن محمداً رسول الله.

إن أثر النبي ﷺ بقي حياً لأنه لم يكن أثر عبقرية بشرية محدودة، بل أثر وحي إلهيٍّ حمله عبداً اصطفاه الله. ولو كان أثره قائماً على شخصية كبرى فقط، لضعف بموت الشخصية، كما تضعف المدارس حين يغيب مؤسسها، وكما تتبدل الحركات حين ينتهي قائدها، وكما يتحول الإعجاب بالرجال إلى حكاياتٍ بعد زوال حضورهم. لكن النبي ﷺ لم يربط الناس بذاته استقلالاً، بل ربطهم بالله، ولم يترك لهم مجرد ذكرياتٍ عنه، بل ترك لهم كتاب الله وسنته وهديه، ولم يصنع جماعةً تعبد حضوره البشري، بل أمةً تعبد الله وتتبع رسوله بعد موته كما اتبعته في حياته.

وهذا من أعظم أسرار البقاء: أنه ﷺ لم يجعل مركز الدعوة شخصه من حيث هو شخص، بل جعل مركزها الوحي الذي جاء به من عند الله. ولذلك لم تنهدم الرسالة بموته، مع أن موته كان أعظم مصيبةٍ أصابت الأمة؛ لأن الذي مات هو الرسول العبد، أما الرسالة التي بلغها فباقية بحفظ الله، والقرآن الذي جاء به محفوظٌ بحفظ الله، والسنن التي أرساها في الأمة ممتدة ما دام في الأمة من يفقه ويتبع ويجدد. ولو كانت الدعوة قائمةً على كاريزما قائدٍ بشريٍّ لا على وحيٍّ محفوظ، لانفرط عقدها حين غاب جسده الشريف عنهم؛ لكنها بقيت لأن النبي ﷺ كان يدلهم على الحي الذي لا يموت، سبحانه وتعالى.

ومن هنا نفهم أن بقاء أثره ﷺ ليس بقاء صورة، بل بقاء معنى. ليس بقاء تمثالٍ ولا شعارٍ ولا طقسٍ فارغ، بل بقاء منهجٍ حيٍّ يستطيع أن يدخل إلى حياة الإنسان في كل زمان: في صلاته، وبيته، وسوقه، وعلمه، وحكمه، ورحمته، وعدله، وقوته، وحزنه، وفرحه، وموته، ورجائه. إن السيرة لم تبقى لأنها محفوظة في كتب التاريخ فقط، بل لأنها قابلةٌ لأن تتحول في كل جيل إلى حياة. يقرأها المؤمن فلا يقول: كان ذلك وانتهى، بل يقول: كيف أكون على هديه الآن؟ كيف أصدق كما صدق؟ كيف أرحم كما رحم؟ كيف أقوى دون أن أظلم؟ كيف أتواضع دون أن أضعف؟ كيف أجعل محبتي له اتباعًا لا دعوى؟

إن الشخصيات التاريخية تُلهم أحيانًا، لكنها لا تشرع للروح طريقها إلى الله. وقد تعطي الإنسان نموذجًا في الشجاعة أو الإدارة أو الفكر، لكنها لا تملك أن تجيب عن أسئلة الوجود الكبرى: من أنا؟ لماذا خُلقت؟ إلى أين أصير؟ كيف أعبد ربي؟ كيف أزكي نفسي؟ كيف أنجو؟ أما النبي ﷺ فقد بقي أثره حيًّا لأنه جاء بالجواب الإلهي عن أصل الوجود وغاية الإنسان ومصيره، ولم يترك الناس لفراغ المعنى، بل دلَّهم على الله، وعلى الصراط المستقيم، وعلى الآخرة، وعلى العمل الذي يرضي الله.

ومن هنا كان أثره ﷺ متجددًا؛ لأن حاجات الإنسان الكبرى لم تتغير. قد تتغير الأدوات، والمدن، واللغات، والاقتصادات، والسياسات، ووسائل الاتصال، لكن الإنسان في داخله ما زال هو الإنسان: يخاف، ويرجو، ويحب، ويغضب، ويذنب، ويتوب، ويظلم أو يعدل، ويبحث عن معنى، ويقلقه الموت، وتفتنه الدنيا، وتجّره شهوته، وتنهض به روحه إذا اتصلت بالله. وما دام الإنسان

كذلك، فحاجته إلى هدي النبي ﷺ باقية؛ لأن هديه يخاطب الإنسان في جوهره لا في قشرته الزمنية، ويربي القلب قبل أن يعلم اليد، ويصلح الباطن قبل أن يزين الظاهر.

لقد بقي أثره حيًّا لأنه خاطب الفطرة لا الموضة، والروح لا الظرف، والإنسان لا مرحلةً عابرةً من مراحل الحضارة. وما كان موصولًا بالفطرة لا يزول بتغير الأزمنة؛ قد يُحجب، قد يُشوّه، قد يُنسى عند بعض الناس، لكنه إذا عاد إلى القلب السليم عرفه القلب كأنه يعود إلى بيته القديم. ولهذا يجد المسلم في سيرة النبي ﷺ شيئًا لا يجده في أي سيرة أخرى: يجد نفسه الممكنة، لا نفسه الساقطة؛ يرى ما يمكن أن يصير إليه الإنسان إذا دخل في تربية الوحي، ويرى أن الفطرة لا تُشفى بالانفلات، بل بالهداية، وأن الروح لا تطمئن بكثرة الأشياء، بل بذكر الله واتباع رسوله.

ومن أسرار بقاء أثره ﷺ أن سيرته ليست صورةً أحاديةً تصلح لجانبٍ واحد من الحياة، بل هي حياةٌ كاملةٌ تتسع لكل مقامات الإنسان. فلو كان ﷺ عابدًا منعزلًا فقط، لقال القائد: أين أسوتي؟ ولو كان قائدًا سياسيًا فقط، لقال العابد: أين رقة الروح؟ ولو كان معلمًا فقط، لقال المجاهد: أين ثبات الميدان؟ ولو كان زوجًا وأبًا فقط، لقال الحاكم: أين ميزان السلطة؟ ولو كان رحيماً بلا حزم، لاحتاجت الأمة إلى نموذج القوة؛ ولو كان قويًا بلا رحمة، لاحتاجت الأمة إلى نموذج اللين. لكنه ﷺ كان أسوةً كاملةً؛ في العبادة والبيت، في الدعوة والدولة، في السلم والحرب، في الفقر والسعة، في الضعف والتمكين، في الصبر والنصر، في العفو والحزم.

ولهذا لم يبق أثره لأنه كان عظيمًا في مجالٍ واحد، بل لأنه كان ميزانًا لكل المجالات.

العابد يجد عنده معنى الخشوع.

والقائد يجد عنده معنى الأمانة.

والزوج يجد عنده معنى حسن العشرة.

والأب يجد عنده معنى الرحمة.

والقاضي يجد عنده معنى العدل.

والداعية يجد عنده معنى الصبر.

والمجاهد يجد عنده معنى القوة المؤدبة.

والفقير يجد عنده معنى الكرامة.

والغني يجد عنده معنى الشكر.

والمظلوم يجد عنده معنى الثبات.

والمنتصر يجد عنده معنى السجود.

هذه الشمولية ليست اتساعًا سرديًا في السيرة فحسب، بل هي من دلائل كونه ﷺ أسوةً للعالمين. فالأسوة لا تكون كاملةً إذا كانت صالحةً لحالٍ دون حال، أو طبقةً دون طبقة، أو زمانٍ دون زمان. وقد جعل الله في حياته ﷺ من تنوع الأحوال ما يكشف الهدى في كل موضعٍ يحتاجه الإنسان؛ حتى لا يقول أحد: لم أجد في السيرة ما يدلني على طريقي. فمن عرف كيف يقرأ، وجد فيها نورًا للعبادة والعمل، وللضعف والقوة، وللخاص والعام، ولل فرد والأمة.

ومن أسرار بقاء أثره أيضًا أن محبته ليست ذكرى اختياريةً في هامش الدين، بل جزءٌ من بنية الإيمان. فالمؤمن لا يحب النبي ﷺ كما يحب العظماء؛ يحبهم

إِعْجَابًا، أما هو فيحبه دينًا وقربةً واتباعًا، لأن الله أرسله، وأمر بطاعته، وجعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وجعل طاعته من طاعة الله. ولهذا بقي اسمه حيًّا في القلوب لا بحكم الذاكرة الثقافية وحدها، بل بحكم العبادة؛ تصلي الأمة عليه، وتذكره في أذانها وإقامتها، وتقرأ سنته، وتتبع هديه، وتعيش معه في معنى التلقي والافتداء.

غير أن هذه المحبة لا تكون صادقةً بمجرد حرارة الوجدان، بل بقدر ما تصير اتباعًا. وقد يكون من البلاء أن يكثر الكلام عن محبته ﷺ، ثم يقل أثره في أخلاق المحبين. إن المحبة التي لا تغير صاحبها ناقصة، والذكر الذي لا يثمر افتداءً يحتاج إلى صدق، والمديح الذي لا يقود إلى طاعة قد يتحول إلى جمالٍ لفظيٍّ بلا روح. لذلك بقي أثره حيًّا في الأمة كلما بقيت المحبة موصولةً بالاتباع؛ فإذا انفصلت عنه صارت عاطفةً موسميةً تشتعل ثم تخبو، أما إذا اتصلت بالاتباع صارت حياةً كاملةً.

ومن هنا ينبغي أن نقول بوضوح: إن بقاء أثر النبي ﷺ فينا ليس مضمونًا بمجرد الانتساب اللفظي، بل يتجدد بقدر ما نفتح له حياتنا. قد يكون أثره حيًّا في الأمة من حيث الوحي والسنة والذكر العام، لكنه قد يضعف في فردٍ أو بيتٍ أو مجتمعٍ إذا ابتعد عن هديه. فليست المشكلة في نقص النور، بل في الحجب التي نضعها بيننا وبينه: حجب الهوى، والغفلة، والعادة، والتقليد الأعمى، والكبر، وضعف العلم، والاكتفاء بالمديح عن الاتباع.

إن أثره ﷺ بقي حيًّا لأن سنته ليست أثرًا جامدًا، بل طريقة حياة قابلة للتجدد في كل ظرف. السنة ليست مجرد تفاصيل منفصلة يجمعها الإنسان بلا روح،

بل هي الهدى الكلي الذي يضبط العبادة والأخلاق والنظر والعمل. ومن قرأ السنة قراءةً مجزأةً قد يحفظ بعض الأفعال ويغفل عن المقاصد التي تؤلفها، أما من قرأها بوصفها هندسةً نبويةً للحياة رأى فيها نظامًا كاملاً: توحيدًا يحكم القلب، وعبادةً تزكي النفس، وأخلاقًا تحفظ العلاقة، وعدلاً يحكم القوة، ورحمةً تمنع الجفاف، وحكمةً تضع الأمور في مواضعها.

وهذا لا يعني أن السنة تذوب في معانٍ عامةٍ بلا اتباعٍ تفصيلي، ولا أن التفاصيل تُلغى باسم المقاصد، بل يعني أن التفصيل والروح يجب أن يجتمعا. فمن أخذ التفاصيل بلا روحٍ قد يحول الهدى إلى هيئةٍ جامدة، ومن أخذ الروح المزعومة بلا تفاصيلٍ قد يصنع دينًا من عند نفسه. أما الاقتداء الصحيح فيجمع بين محبة الجزئي لأنه من هديه ﷺ، وفهم الكلي الذي يعطي الجزئي مكانه في البناء. وهكذا يبقى أثره حيًا لا بتقليدٍ ميت، ولا بتحررٍ منفلت، بل باتباعٍ بصير.

ومن أسرار هذا البقاء أن القرآن نفسه يحفظ للنبي ﷺ حضوره الرسالي في الأمة. فالقرآن لا يقدم النبي ﷺ كشخصيةٍ عابرة، بل يقرر طاعته، ويبين مقامه، ويأمر باتباعه، ويعرض أخلاقه، ويجعل حياته موضع الأسوة. ولذلك فكل عودةٍ صادقةٍ إلى القرآن تقود إلى النبي ﷺ، وكل دعوى للاكتفاء بالقرآن مع إقصاء هديه ﷺ هي في حقيقتها مخالفةٌ للقرآن الذي أمر بطاعته واتباعه. فلا يمكن أن يُفهم الكتاب حقَّ الفهم بعيدًا عن الرسول الذي أنزل عليه، وبلغه، وبيّنه، وعاشه، وجسّده في الأمة.

لقد بقي أثره حيًّا لأن القرآن بقي حيًّا، ولأن سنته بقيت مفتاحًا لفهم كيف ينزل القرآن في الحياة. فالقرآن نور، والنبي ﷺ كان أتم الناس امتثالًا لهذا النور، ومن أراد أن يعرف كيف يصير الوحي صلاةً وصبرًا وعدلاً ورحمةً وجهادًا وبيئًا وأمةً، فلينظر في سيرته. إن السيرة هي المجال الحي الذي ظهرت فيه معاني القرآن في إنسانٍ مصطفى، ولذلك لا ينفصل حب القرآن عن حب النبي ﷺ، ولا ينفصل تدبر القرآن عن اتباع النبي ﷺ.

ومن أعظم أسرار بقاء أثره أن الزمن لم يستطع أن يفرغ حاجتنا إليه. فكلما ظن الإنسان الحديث أنه استغنى بما اخترع، عاد فوجد في داخله فراغًا لا تملؤه الآلة، وقلقًا لا يسكته الضجيج، وشهوة لا يشبعها الاستهلاك، ووحدة لا تعالجها الشبكات، وخوفًا من الموت لا يزيله الطب، وظلمًا لا تمنعه القوانين إذا خلا القلب من التقوى. وهنا تظهر حاجة الإنسان المتجدد إلى النبي ﷺ: لا باعتباره بديلاً عن العلم النافع أو الأسباب المشروعة، بل باعتباره رسول الهداية التي تجعل العلم في موضعه، والقوة في موضعها، والحرية في موضعها، والدنيا في موضعها، والإنسان في موضع العبودية لله.

إن الحداثة قد تضاعف القدرة، لكنها لا تمنح الغاية.  
وقد توسع الاختيار، لكنها لا تعلم الإنسان ماذا يختار.  
وقد تقرب المسافات، لكنها لا تقرب القلب من ربه.  
وقد تكثر المعلومات، لكنها لا تركز النفس بالضرورة.  
وقد ترفع شعار الإنسان، لكنها كثيرًا ما تتركه بلا قبلةٍ داخلية.

أما هدي النبي ﷺ فيرد القدرة إلى الأمانة، والحرية إلى العبودية، والمعرفة إلى الخشية، والحياة إلى الآخرة، والإنسان إلى الله. ولذلك لا يشيخ هذا الهدي؛ لأنه لا يعالج أعراض مرحلة تاريخية واحدة، بل يعالج أصل الاضطراب الإنساني حين ينسى الإنسان ربه.

ومن أسرار بقاء أثره كذلك أن سيرته لا تقدم الكمال بوصفه قسوةً على الضعفاء، بل بوصفه رحمةً بهم. وهذا يجعلها قريبةً من النفوس. فالنبي ﷺ لم يكن كماله حاجزاً بينه وبين الناس، بل كان باباً لهم؛ لم يجعل عظمته سبباً لإذلالهم، بل سبباً لرفعهم؛ لم يكن المثال الأعلى الذي يكسر الضعفاء بشدة لمعانه، بل المثال الأعلى الذي يفتح لهم طريق الصعود بقدر طاقتهم. يجد المذنب في سيرته باب التوبة، يجد الضعيف معنى الكرامة، ويجد المظلوم معنى الصبر، ويجد المتعثر أن الطريق لا يُغلق دون من رجع إلى الله.

ولذلك بقيت سيرته حيّةً لأنها لا تخاطب الناجحين وحدهم، بل تخاطب المنكسرين أيضاً. تخاطب من أذنب، ومن فشل، ومن تأخر، ومن فقد، ومن حزن، ومن خاف، ومن بدأ من جديد. وفيها يرى الإنسان أن طريق الله لا يفتح الكبر، بل التوبة؛ ولا يسلكه الادعاء، بل الصدق؛ ولا يقطعه الإنسان بقوته وحدها، بل بعون الله. وهذه الرحمة تجعل أثره ﷺ ممتداً في القلوب؛ لأنه لا يأتي إلى الإنسان ليجلده بئأس، بل ليأخذه إلى الله برجاءٍ ومسؤولية.

ومن جهةٍ أخرى، بقي أثره حيّاً لأنه لم يترك الأمة بلا معيار. والمعيار من أعظم حاجات المجتمعات؛ فإذا غاب المعيار صار كل جيلٍ يصنع فضيلته على هواه، وكل مرحلةٍ تعيد تعريف الحق بما يناسب قوتها، وكل ثقافةٍ تجعل

عاداتها دينًا خفيًا. أما وجود النبي ﷺ أسوةً ومعيارًا فيحفظ للأمة قبله أخلاقيةً وسلوكيةً ترجع إليها حين تختلط الطرق. تسأل: ماذا كان هديه في الرحمة؟ في القوة؟ في الحكم؟ في البيت؟ في المال؟ في الخصومة؟ في النصر؟ في الضعف؟ وهكذا لا تضيع الأمة في الفوضى التأويلية إذا صدقت في الرجوع إليه.

إن غياب المثال الأعلى يترك الإنسان بين مثالين ناقصين: إما مثال القوة المتجبرة، أو مثال الضعف المستسلم؛ إما الزهد الهارب من الحياة، أو الاندماج الغارق فيها؛ إما الروحانية المنفصلة عن العمران، أو العمران المنفصل عن الروح؛ إما العقل المتكبر على الوحي، أو العاطفة التي لا تضبطها حجة. أما النبي ﷺ فيجمع ما تفرق، ويضع كل معنى في نصابه، ولذلك يبقى أثره ضرورةً لا زينة. إنه الميزان الذي يمنع الأمة من الانزلاق إلى أحد الأطراف المريضة.

ومن أسرار بقاء أثره أن شخصيته ﷺ لا تنفد عند القراءة. فكلما عاد الإنسان إلى سيرته وجد بابًا جديدًا: مرةً يرى النبي العابد، ومرةً القائد، ومرةً المعلم، ومرةً الزوج، ومرةً الرحيم، ومرةً القوي، ومرةً الصابر، ومرةً الشاكر، ومرةً الفاتح المتواضع، ومرةً المربي الذي يصنع الإنسان من الداخل. وهذا الغنى ليس غنى معلوماتٍ فقط، بل غنى دلالات. وكل جيل يجد في السيرة ما يعالج مرضه الخاص؛ جيلٌ يعاني القسوة يجد الرحمة، وجيلٌ يعاني الضعف يجد القوة، وجيلٌ يعاني التشنئ يجد البناء، وجيلٌ يعاني الغرور يجد العبودية، وجيلٌ يعاني فقدان المعنى يجد الوحي.

ولعل هذا من علامات الهدى العظيم: أنه لا يعطي قارئه كل شيء من أول نظرة، بل يظل يفتح له أبوابًا بقدر صدقه وحاجته ونضجه. فالسيرة ليست سطحًا واحدًا، بل طبقات من المعنى؛ وكلما ازداد الإنسان معرفةً بالله، وبالنفس، وبالحياة، عاد إليها فرأها أعمق. يقرأها الشاب فيأخذ منها الحماسة والقوة، ويقرأها المربي فيأخذ منها فقه النفوس، ويقرأها القائد فيأخذ منها أمانة القوة، ويقرأها العابد فيأخذ منها سر الخضوع، ويقرأها المجروح فيأخذ منها معنى الصبر، ويقرأها الكاتب فيأخذ منها صدق الكلمة وجلال المعنى.

ومن أسرار بقاء أثره أيضًا أن حياته ﷺ كانت موصولةً بالآخرة في كل تفاصيلها. والأثر الذي لا يتصل بالآخرة يذبل؛ لأنه يبقى محصورًا في مصالح الدنيا وأذواقها المتقلبة. أما النبي ﷺ فكل ما جاء به يفتح الدنيا على الآخرة: الصلاة تفتح الوقت على الله، والصدقة تفتح المال على الجزاء، والصبر يفتح الألم على الثواب، والعدل يفتح الحكم على الحساب، والرحمة تفتح العلاقة بالخلق على مرضاة الخالق، والموت يفتح النهاية على اللقاء. وهكذا لا تبقى الحياة مغلقةً على ذاتها، بل تصير طريقًا إلى الله.

وهذا هو ما يحتاجه الإنسان دائمًا: أن لا تُحبس حياته داخل حدود الدنيا. فإذا حُبس داخلها خاف فواتها، وعبد متاعها، وذلل لقوتها، وانكسر عند فقدها، ونازع الناس عليها كأنها كل شيء. أما إذا فُتحت حياته على الآخرة، صار يرى الدنيا بميزانها، يأخذ منها ما شرع الله، ويترك منها ما حرم الله، ويصبر على ما فاتته، ويشكر ما أتاه، ويعلم أن ما عند الله خيرٌ وأبقى. والنبي ﷺ بقي أثره حيًّا لأنه علّم الإنسان كيف يعيش في الدنيا دون أن يُدفن فيها قبل موته.

ومن هنا فإن أثره ﷺ لا يبقى في الفرد إلا إذا بقيت الآخرة حية في قلبه. فحين تضعف الآخرة، يتحول الدين إلى ثقافة، والسيرة إلى تاريخ، والمحبة إلى مناسبة، والأخلاق إلى ذوق، والعبادة إلى عادة. أما حين تحضر الآخرة، تعود السيرة ناراً من نور، توقظ القلب، وتحاسبه، وترفعه، وتذكره أن النبي ﷺ لم يأت ليمنحنا مادةً للإعجاب، بل ليقودنا إلى النجاة بإذن الله.

ومن أسرار بقاء أثره أن أمته لم تنقطع عن ذكره. الصلاة عليه ﷺ ليست مجرد تكرار لفظي، بل تجديد للعهد، وتربية للوجدان، وربط للقلب بمقام النبوة، وتذكير دائم بأن طريقنا إلى الله في هذه الأمة يمر باتباع هذا الرسول الكريم. كل صلاة عليه توقظ معنى: أن الله رفع ذكره، وأنا نسأل الله له مزيد الصلاة والسلام، وأنا نعترف بفضلنا بعد فضل الله، وأنا لا نريد أن يكون ذكره خبراً بعيداً، بل حضوراً حياً في القلب. ومن أكثر الصلاة عليه بصدقٍ وأدبٍ، ينبغي أن يجد أثر ذلك في حياته من مخالفته.

لكن الصلاة عليه لا ينبغي أن تتحول إلى لفظٍ منفصلٍ عن الهدى؛ فإن من يصلي عليه بلسانه ثم يجفو سنته بعمله قد جمع صورةً من الذكر مع نقصٍ في الوفاء. والوفاء الكامل أن يجتمع اللسان والقلب والجوارح: اللسان يصلي، والقلب يحب، والجوارح تتبع، والعقل يتعلم، والنفس تتأدب. عندها يكون ذكره حياً لا صوتاً عابراً.

ومن أسرار بقاء أثره كذلك أن الأمة تجد فيه وحدتها العميقة كلما تفرقت بها السبل. قد تختلف الألسنة، والبلدان، والمذاهب الفقهية، والطبائع، والثقافات، ولكن اسم محمد ﷺ يجمعها على أصلٍ واحد: أنه رسول الله، وأنه الأسوة،

وأن محبته دين، وأن سنته هدى. وحين تضعف رابطة الأمة في السياسة أو الاجتماع، تبقى رابطة النبوة أعمق من كل هذه التشققات، قادرة على أن تذكر المسلمين بأن لهم قبلة واحدة، وكتاباً واحداً، ورسولاً واحداً، وغاية واحدة.

وهذه الوحدة ليست عاطفة عامة فحسب، بل مسؤولية. فمن انتسب إلى نبيٍّ واحد ينبغي أن يتخلق بأدب هذا الانتساب، وأن لا يجعل الخلاف سبباً للبغي، ولا التنوع سبباً للتمزق، ولا الانتصار للنفس باسم الدين سبباً لإهدار الرحمة والعدل. النبي ﷺ الذي جمع الأمة على التوحيد لا يرضى من أتباعه أن يمزقهم الهوى، ولا أن يتحول العلم إلى كبر، ولا الغيرة إلى عدوان، ولا الانتماء إلى عصبية. ومن أراد أن يكون وفياً له، فليجعل وحدته مع إخوانه محكومةً بالحق والرحمة، لا بالمجاملة ولا بالظلم.

إن أثره بقي حياً لأنه لم يبين أمةً حول الدم أو اللغة أو الأرض وحدها، بل حول الوحي. وهذه أعمق أنواع البناء؛ لأن رابطة الوحي أقدر على البقاء من روابط المصلحة. المصالح تتغير، والأرض قد تضيق أو تتبدل، والسياسة تعلو وتهبط، لكن الإيمان إذا بقي في القلب جمع ما تفرّق. ولذلك ما زال المسلم في أقصى الأرض إذا سمع اسم النبي ﷺ صلى عليه، كأن بينه وبينه عهداً شخصياً حياً، مع أنه لم يره بعينه؛ وهذا من أعجب آثار النبوة: أن تحب أمةً كاملةً رجلاً لم تره، لأنها عرفت أنه رسول ربها، وأنه أرحم بها من نفسها.

ومن أسرار بقاء أثره أيضاً أن الله جعل في سيرته قدرة على تصحيح الانحرافات المتكررة. إذا مالت الأمة إلى الغلو، ردتها السيرة إلى العبودية

والتوحيد. وإذا مالت إلى الجفاء، ردتها إلى المحبة والتوقير. وإذا مالت إلى الضعف، ردتها إلى القوة والشجاعة. وإذا مالت إلى القسوة، ردتها إلى الرحمة. وإذا مالت إلى الترف، ردتها إلى الزهد. وإذا مالت إلى العزلة، ردتها إلى حمل الرسالة. وإذا مالت إلى الدنيا، ردتها إلى الآخرة. فكأن السيرة ميزانٌ حيٌّ يعالج أمراض الأمة كلما رجعت إليه بصدق.

وهذا يعني أن العودة إلى النبي ﷺ ليست حركةً إلى الماضي، بل عودةً إلى الأصل الذي يحيي الحاضر ويصح المستقبل. بعض الناس يظنون أن الاقتداء بالسيرة رجوعٌ إلى زمنٍ مضى، لأنهم لا يفرقون بين الزمن والمعنى. نحن لا نعود إلى أدوات القرن الأول، بل نعود إلى الهدي الذي يضبط كل قرن. لا نعود إلى الماضي بوصفه شكلاً جامداً، بل نعود إلى الوحي الذي يجعل حاضرنا مستقيماً. ومن لم يفهم هذا ظن أن السنة عائقٌ عن الحياة، مع أنها النور الذي يمنع الحياة من العمى.

إن النبي ﷺ باقٍ أثره لأن هديه ليس مقيداً بمظاهر زمنية زائلة، بل قائمٌ على أصولٍ ربانيةٍ تنزل على الأزمنة بحكمة الفقهاء والعلماء والمهتدين. فالصدق لا يشيخ، والعدل لا يشيخ، والرحمة لا تشيخ، والعبودية لا تشيخ، والتوحيد لا يشيخ، ومراقبة الله لا تشيخ، وحسن العشرة لا يشيخ، وصيانة القوة من الظلم لا تشيخ. قد تتغير صور التطبيق بتغير الأحوال في دائرة المشروع، لكن الأصل النبوي يبقى هادياً وحاكماً ومقوماً.

ومن أسرار بقاء أثره كذلك أن محن الأمة تكشف حاجتها إليه أكثر. حين تضعف الأمة تبحث عن سر القوة في سيرته. وحين يكثر الظلم تبحث عن

عدله. وحين يتشوه الدين في أيدي الغلاة أو المفرطين تبحث عن ميزانه. وحين يتيه الشباب بين الهويات يبحثون عن الإنسان الذي رباه الوحي. وحين تجف القلوب تبحث عن رحمته. وحين يعلو الباطل تبحث عن ثباته. وكأن كل أزمة تكشف باباً من أبواب السيرة كان حاضراً، لكننا لم نكن نراه بعمق كافٍ حتى احتجنا إليه.

ولهذا لا تنفد الكتابة عنه ﷺ، لا لأننا نريد تكرار ما قيل، بل لأن حاجتنا المتجددة تكشف من هديه وجوهاً جديدةً في الفهم والتفصيل. فالكاتب لا يأتي بسيرة جديدة، وحاشا أن يزعم ذلك، ولكنه قد يأتي بزاوية قراءةٍ توقظ معنىً كان حاضراً. وهذا هو الفرق بين الابتداع في الدين، وهو باطل، وبين التجديد في الفهم والتذكير، وهو مطلوبٌ إذا انضبط بالوحي والعلم والأدب. أن نقرأ النبي ﷺ اليوم في ضوء أمراض القوة الحديثة، وأزمات البيت، وضياح المعنى، وانكسار الأخلاق، لا لنحاكمه إلى عصرنا، بل لنحاكم عصرنا إلى هديه.

إن أثره بقي حياً لأنه ليس محتاجاً إلى العصر حتى يمنحه قيمته، بل العصر هو المحتاج إليه حتى يعرف قيمته. لا يجوز أن نسأل: كيف نجعل النبي ﷺ مناسباً لعصرنا؟ بل السؤال الصحيح: كيف نجعل عصرنا أقرب إلى هدي النبي ﷺ؟ فالمعيار ليس تقلبات الإنسان الحديث، بل الوحي. وكل محاولة لجعل السيرة تابعةً لأذواق العصر تفقد سرها؛ لأن قوتها في أنها تأتي من فوق أهواء الأزمنة، لا من داخلها.

ومن أعظم أسرار بقاء أثره أن الله سبحانه تكفل برفع ذكره. وهذا معنى ينبغي أن يملأ القلب إجلالاً؛ فإن ذكر النبي ﷺ ليس مشروعاً بشرياً نجح بالتراكم وحده، بل هو رفع رباني. وإذا رفع الله ذكر عبدٍ من عباده، فليس لقوة الأرض أن تخفضه. لقد حاول المكذبون أن يطفئوا نوره، فصار اسمه يتردد في الأرض كل لحظة. حاولوا أن يحاصروه في مكة، فصار ذكره يعبر اللغات والقارات والقرون. حاولوا أن يجعلوه منسياً، فصار أعظم الناس حضوراً في قلوب المؤمنين.

غير أن رفع الذكر لا يعني أن الأمة معفية من واجب النصر والاتباع، بل يعني أنها تدخل في شرف هذا الرفع بقدر ما تكون أمانةً عليه. الله رفع ذكره، ونحن مأمورون بالصلاة والسلام عليه، وطاعته، واتباع سنته، ونشر هديه، والدفاع عنه بالحق والخلق والعلم. وأيُّ أمةٍ تدّعي محبته ثم لا تحمل أمانة هديه، فقد أخذت من الرفع حلاوة الانتساب وتركت كلفة الوفاء.

إن بقاء أثر النبي ﷺ ينبغي أن يتحول في داخلنا إلى سؤال محاسبة: إذا كان أثره حياً، فأين حياته فينا؟ أين هو في أخلاقنا؟ أين هو في أسلوب خلافتنا؟ أين هو في بيوتنا؟ أين هو في قوتنا إذا قدرنا؟ أين هو في رحمتنا إذا عاملنا الضعفاء؟ أين هو في كتابتنا إذا كتبنا؟ أين هو في طلبنا للعلم؟ أين هو في علاقتنا بالدنيا؟ أين هو في سجودنا وخلواتنا؟ إن أثره في الأمة لا ينبغي أن يكون ذكراً عاماً فقط، بل حياة خاصة في كل واحدٍ منا.

وقد يكون المرء قريباً من السيرة قراءةً بعيداً عنها تحققاً. يحفظ الوقائع، ويعرف الغزوات، ويتكلم عن الشرائع، ثم إذا خالف أو خاصم أو قدر أو

غضب أو دخل بيته لم يظهر من السيرة شيء كثير. وهذا خطرٌ كبير؛ لأن العلم بالسيرة إذا لم يثمر تزكيةً قد يتحول إلى ثقافةٍ يزين بها الإنسان كلامه، لا نورٍ يغير به نفسه. والسيرة لم تُحفظ لكي نملك مادةً للخطابة، بل لكي نملك طريقاً للاقتداء.

ومن هنا يكون بقاء أثره حيًّا في القلوب مشروطاً بالصدق. فمن جاء إلى السيرة طالباً تبرير هواه قد يجد فيها ما يقتطعه بغير حق، ومن جاء طالباً تزكية نفسه وجدها تقوده إلى الله. ومن قرأها ليعلو بها على الناس خالف روحها، ومن قرأها ليخضع لله انفتح له بابها. ومن جعل النبي ﷺ شاهداً على حزبه الضيق أو عصبيته أو قسوته فقد أساء الأدب، ومن جعل نفسه معروضةً على هديه فقد أحسن الطريق.

إن النبي ﷺ لم يبق أثره حيًّا لأنه كان عظيمًا في ذاته فقط، بل لأن عظمته قابلةٌ لأن تحيي غيره بإذن الله. وهذا هو الفرق بين العظمة المعجبة والعظمة الهادية. قد تُعجب برجلٍ كبير، ثم لا يغيرك إعجابك به. أما النبي ﷺ فإذا عرفته حق المعرفة، استحيت أن تبقى كما أنت. عظمته ليست للزينة، بل للتربية؛ ليست للانبهار فقط، بل للاتباع؛ ليست لتسكين العاطفة، بل لإيقاظ الإرادة. ومن خرج من قراءة السيرة كما دخل، فليعلم أنه مرَّ على الباب ولم يدخل.

ومن أعظم ما يبقى أثره حيًّا أن سيرته تجمع بين الجلال والجمال. فيها جلال النبوة، وجمال الرحمة؛ جلال الحق، وجمال الخلق؛ جلال العبادة، وجمال المعاشرة؛ جلال القوة، وجمال العفو؛ جلال القيادة، وجمال التواضع.

والإنسان يحتاج إلى الجلال حتى لا يذوب في الرخاوة، ويحتاج إلى الجمال حتى لا يتصلب في القسوة. والسيرة النبوية تمده بالأمرين معًا، فتقيم فيه قلبًا خاشعًا لا ذليلاً، وقويًا لا ظالمًا، ورحيمًا لا مفرطًا، وعاقلاً لا متكبرًا، ومحبًا لا غاليًا.

وهذه التركيبة هي التي تجعل أثره متجددًا في التربية. فالناس قد ينفرون من الحق إذا قُدِّم بلا جمال، وقد يضيعون في الجمال إذا انفصل عن الحق. أما النبي ﷺ فقد جاء بالحق في أكمل جمالٍ بشريٍّ ممكن، لا جمال الزخرفة، بل جمال الصدق والرحمة والبيان والحكمة. ولذلك كان أثره في النفوس عميقًا؛ لأنه لا يخاطب العقل وحده، ولا القلب وحده، ولا الإرادة وحدها، بل يأخذ الإنسان كله إلى الله.

وفي ختام هذا الفصل نستطيع أن نقول: بقي أثر النبي ﷺ حيًّا لأنه أثر وحي، وأثر عبودية، وأثر رحمة، وأثر بناءٍ داخلي، وأثر أسوةٍ كاملة، وأثر قرآنٍ يتلى، وسنةٍ تُتبع، ومحبةٍ تسكن القلوب، وذكرٍ رفعه الله، وحاجةٍ إنسانيةٍ لا تنقضي. بقي لأنه لم يكن عظيمًا يملأ الذاكرة، بل رسولًا يفتح الطريق إلى الله. بقي لأن الله أراد لهذا النور أن يبقى، ولأن ما جاء به ليس عرضًا من أعراض الزمن، بل هدايةً من رب العالمين.

وبقي أثره حيًّا لأن كل جيلٍ حين يضل يجد في هديه طريقًا، وحين يضعف يجد في سيرته قوة، وحين يقسو يجد في رحمته شفاء، وحين يغتر يجد في عبوديته تذكيرًا، وحين يتفرق يجد في أمته معنى الاجتماع، وحين تظلم الدنيا يجد في الآخرة التي دعا إليها أفقًا لا ينطفئ.

فليست المسألة إذن: لماذا بقي محمد ﷺ في التاريخ؟

بل السؤال الأدق: كيف لا يبقى، وهو رسول الله، وخاتم النبيين، ورحمة العالمين، والأسوة الباقية، والإنسان الذي لم تفسده العظمة، والنور الذي دلّ على الله، والعبد الذي بلغ أعلى مقام العبودية، والمعلم الذي ما زالت أمته تتعلم منه كيف تكون إنساناً؟

لقد بقي لأنه لم يكن ماضياً.

بقي لأنه هداية.

بقي لأنه لم يرد القلوب إلى نفسه، بل ردها إلى ربها.

بقي لأن الله أبقى ذكره، وحفظ دينه، وجعل اتباعه طريق النجاة.

ومن هنا انتهاء للخاتمة الكبرى، لا لنغلق الكلام عنه، فالكلام عنه لا يغلق، ولكن لنللم خيوط هذا المعنى الجامع: أن محمداً ﷺ لم يكن مجرد أعظم إنسان في التاريخ، بل كان الإنسان الذي صار بتربية الوحي دليلاً على ما يمكن أن تصير إليه البشرية حين تستجيب لله؛ وأن الكتابة عنه لا تبلغ حقه، لكنها قد تفقد الكاتب والقارئ إلى أدبٍ أعظم معه، ومحبةٍ أصدق له، واتباعٍ أعمق لهديه.

## الخاتمة الكبرى

### حِينَ صَارَ الْإِنْسَانُ دَلِيلًا عَلَى الْوَحْيِ

ليس محمدٌ ﷺ موضوعًا تنتهي الكتابة عنه حين تنتهي الصفحات، ولا شخصية تُغلق عندها الفصول كما تُغلق سِيرَ العظماء، ولا مقامًا يبلغه القلم مهما أوتي من بيان؛ بل هو رسول الله، وخاتم النبيين، والعبد المصطفى، والأسوة الباقية، والرحمة المهداة، والإنسان الذي جعله الله برهانًا حيًّا على أن الوحي إذا ربَّى الإنسان أخرجته من ضيق طبعه إلى سعة عبوديته، ومن فوضى النفس إلى نظام الهداية، ومن ثقل الأرض إلى نور الطريق إلى الله.

لقد حاول هذا الكتاب أن يقترب من معنى واحدٍ جامع، لا أن يحيط بالمقام، فالإحاطة ممتنعة، ولا أن يستنفد السيرة، فالسيرة أوسع من كل محاولة، ولا أن يزاحم كتب الشمائل والسير، فهي أصولٌ سامقةٌ محفوظةٌ في ميراث الأمة، وإنما حاول أن يقرأ شخصية النبي ﷺ من جهةٍ مخصوصة: جهة العظمة التي لم تفسدها العظمة، والكمال الذي بقي عبداً، والقوة التي بقيت رحمة، والرحمة التي بقيت حقاً، والبيت الذي كشف صدق الرسالة في التفاصيل، والتربية التي بنت الإنسان من الداخل، والأثر الذي بقي حيًّا لأنه موصولٌ بالوحي لا بالزمن.

والحقيقة التي تنكشف في نهاية هذا المسار أن النبي ﷺ ليس عظيمًا لأنه جمع خصال العظمة البشرية فحسب، بل لأنه أعاد تعريف العظمة نفسها. فالناس

قبل الوحي وبعده كثيرًا ما ظنوا أن العظمة في الغلبة، أو الثراء، أو الجاه، أو الذكر، أو السلطان، أو التفوق، أو امتلاك القدرة على التأثير في الناس؛ فجاءت السيرة النبوية لتقول إن العظمة التي لا تسجد لله قد تكون فتنة، وإن القوة التي لا يحكمها الحق قد تكون ظلمًا، وإن الرحمة التي لا تهدي قد تكون ضعفًا، وإن العلم الذي لا يورث خشية قد يكون حجابًا، وإن القيادة التي لا تبدأ من العبودية قد تصير بابًا لاستعباد الناس.

أما محمد ﷺ فقد كان عظيمًا لأنه كان أعبد الخلق لله. وكان قويًّا لأن قوته دخلت في طاعة الله. وكان رحيماً لأن رحمته جاءت من هدى الله. وكان متواضعًا لأن قلبه أعرف القلوب بربه. وكان قائداً لأن قيادته كانت أمانة لا انتشاءً بالسلطان. وكان محبوباً لأن محبته تفتح القلوب على الله، لا تحبسها عند شخصه الشريف خارج حدود الوحي.

ومن هنا نفهم أن مقامه ﷺ لا يرفع الإنسان إلى غلوٍ باطل، بل يرده إلى التوحيد الأصفى. فكلمنا أحببناه حقاً ازددنا لله عبودية، وكلمنا وقرناه كما أمر الله ازددنا اتباعاً للوحي، وكلمنا صلينا عليه بصدق ازددنا حياءً من مخالفته، وكلمنا تأملنا شمائله أدركنا أن كماله ليس باباً إلى تأليه البشر، بل برهانٌ على أن أشرف البشر هو أشدهم تحقيقاً للعبودية. هو عبد الله ورسوله، وهذه العبارة ليست تقليلاً من مقامه، بل هي تاج المقام كله؛ لأن العبودية لله هي أشرف ما يناله الإنسان، وقد بلغ منها ﷺ الغاية التي لا يبلغها غيره.

لقد رأينا في أول الكتاب أن صعوبة الكتابة عنه ﷺ ليست في قلة المادة، بل في فرط الجلال. فالأقلام لا تعجز لأنها لا تجد ما تقول، بل لأنها كلما قالت شيئاً شعرت أن المقام أرفع، وأن اللغة أضيق، وأن المديح لا يبلغ حقيقة الاصطفاء. ولكن هذا العجز نفسه نوعٌ من الأدب؛ لأن من ظن أنه أحاط بمقام النبي ﷺ بعبارته، فقد نقص فهمه قبل أن ينقص بيانه. إن الكتابة عنه ينبغي أن تبقى منكسرةً أمام مقامه، لا منكسرةً ضعفاً، بل منكسرةً أدباً؛ تعلم أنها تشير ولا تحيط، وتقترب ولا تستنفد، وتحب ولا تغلو، وتصف ولا تدّعي بلوغ الحقيقة كلها.

ولقد رأينا أن كماله ﷺ لم يكن انفصلاً عن البشر، بل ترقيةً لمعنى البشرية. لم يكن بشراً عادياً، فهو رسولٌ يوحى إليه، مصطفى من ربه، ولكنه كذلك لم يخرج عن البشرية خروجاً يُبطل الأسوة. كان يأكل، ويمشي، ويتزوج، ويحزن، ويفرح، ويبتلى، ويصبر، ويجاهد، ويخالط الناس، ويعيش الحياة بكل مقاماتها، لكن كل ذلك كان داخلاً في أدب الوحي. وهنا ظهرت عظمة الرسالة: أن الإنسان لا يقترب من الله بإلغاء بشريته، بل بتزكيتها؛ ولا يسمو بالهروب من الحياة، بل بإدخال الحياة في طاعة الله؛ ولا يبلغ كماله بأن يصير غير إنسان، بل بأن يصير عبداً لله كما أراد الله للإنسان أن يكون.

ورأينا كذلك العظمة التي بقيت ساجدة، تلك العظمة التي اجتمعت لها أسباب الرفعة كلها، ثم لم تجعل من الرفعة حجاباً عن الله. كم من إنسانٍ يفسده قليلٌ من الجاه، أو قليلٌ من الشهرة، أو قليلٌ من القدرة، فإذا بالنفس تستيقظ فيها أوهامٌ كانت نائمة، وإذا بالخلق يضيق، وإذا بالتواضع يتراجع. أما رسول الله ﷺ فقد فُتح له من المقامات ما لا يُقاس به شيء، ومع ذلك بقي عبداً شاكراً،

يدخل الفتح خاضعًا، ويحمل النصر ساجدًا، ويعلم الأمة أن أعظم ما في العظمة أن تعرف مصدرها وحدّها وغايتها.

ورأينا الرحمة التي لا تلغي الحق، فلا هي رخاوة تترك الإنسان لهواه، ولا هي عاطفة تعطل العدل، بل رحمة هادية تعرف أن أرحم الناس بك من ذلك على نجاتك، لا من وافقك على هلاكك. كان ﷺ رحمةً للعالمين، لا لأنه ألغى التكليف، بل لأنه دلّ الخلق على الله؛ ولا لأنه ترك الباطل بلا مواجهة، بل لأنه واجهه بقلب لا يريد الانتقام لنفسه، بل يريد هداية الناس وصيانة الحق. وكانت رحمته أوسع من اللين العابر؛ تشمل التعليم، والتوبة، والستر، والعدل، والحزم، وردع الظالم، ونصرة الضعيف، وفتح باب الرجاء للمذنب إذا رجع إلى ربه.

ورأينا القوة التي لم تتحول إلى بطش، وهي من أدق براهين الكمال المحمدي؛ لأن القوة تكشف الإنسان أكثر مما يكشفه الضعف. قد يكون الإنسان حليمًا لأنه عاجز، ورحيمًا لأنه لا يملك العقوبة، ومتواضعًا لأنه لم يذق الرفعة، وعادلًا لأنه لا يملك فرصة الظلم، فإذا قدر ظهرت حقيقته. أما النبي ﷺ فحين قدر ازداد عدلًا، وحين انتصر ازداد عفوًّا، وحين قاد ازداد أمانة، وحين ملك أسباب القوة لم يجعلها سوطًا للنفس، بل جعلها حراسةً للحق ورحمةً بالخلق. لقد دخلت قوته في العبودية، ولذلك سلمت من الطغيان.

ورأينا الجمال النفسي في البيت النبوي، ذلك الباب الذي يكشف صدق الإنسان حين لا يكون أمام الجمهور. فالبيت هو مختبر الأخلاق المتكررة، وميدان الرحمة اليومية، وموضع سقوط التمثيل، وفيه ظهرت عظمة النبي ﷺ لا أقل

مما ظهرت في ميادين الدعوة والجهاد. كان ﷺ جميل العشرة، رحيماً بأهله، لطيفاً في قربه، لا تجعل الرسالة العامة قلبه جافاً في الدائرة الخاصة، ولا تجعله العظمة متعالياً على الخدمة والرفق والوفاء. وبذلك علّمنا أن العظمة التي لا تدخل البيت عظمة ناقصة، وأن الخلق الذي لا يعرفه القريبون دعوى تحتاج إلى مراجعة.

ورأينا كيف بنى النبي ﷺ الإنسان من الداخل، لا بمعلوماتٍ تضاف إلى الذاكرة فقط، بل بتغيير مركز القلب: من عبادة الأصنام إلى توحيد الله، ومن الخوف من الناس إلى مراقبة الله، ومن طلب الذكر إلى الإخلاص، ومن العصبية إلى الأمة، ومن الثأر إلى العدل، ومن عبادة الدنيا إلى العمل للأخرة. لم يصنع ﷺ أتباعاً يدورون حول شخصه، بل صنع عباداً لله يحملون الوحي. وهذا من أعظم دلائل صدقه؛ لأن المصلحين المأخوذين بأنفسهم يريدون للناس أن يبقوا أسرى صورتهم، أما النبي ﷺ فأرادهم لله، وبالله، وعلى هدى الله.

ورأينا محمداً ﷺ في عين عدوه، لا لنجعل شهادة الخصم أصلاً في مقامه، فمقامه ثابتٌ بالوحي، ولكن لنعلم أن الحقيقة إذا بلغت صفاءها أكرهت بعض الخصوم على التوقير، وأن سيرته قبل البعثة وبعدها كانت من النقاء بحيث لم يجد أعداؤه فيها مدخلاً حقيقياً للطعن. عرفوا صدقه وأمانته، ثم كذبوا رسالته لا لأن سيرته تخذلها، بل لأن الرسالة كانت تهدم ما ألفوه من جاهٍ ومصلحةٍ وصنمٍ وعادة. وهنا رأينا أن أخطر ما في الإنسان ليس جهله دائماً، بل قد يكون علمه الذي يحجزه الكبر عن التسليم.

ثم رأينا لماذا بقي أثره حيًّا؛ لأنه لم يكن أثر رجلٍ عظيمٍ مضى، بل أثر وحيٍ باقٍ، ورسالةٍ محفوظة، وسنةٍ حية، ومحبةٍ دينية، وأسوةٍ شاملة، وحاجةٍ إنسانيةٍ لا تنتهي. بقي أثره ﷺ لأن الإنسان ما زال يحتاج إلى الله، وما زال يحتاج إلى من يدلّه على الله، وما زال يحتاج إلى الرحمة والعدل والمعنى والآخرة والتزكية. تغيرت الأدوات، ولم تتغير الفطرة؛ تغيرت الحضارات، ولم يتغير قلق الإنسان إذا ابتعد عن ربه؛ كثرت المعلومات، ولم تُغن عن الهداية؛ اتسعت القوة، ولم تُغن عن الأخلاق. ولذلك بقي هديه ﷺ ضرورةً للإنسان لا ذكرى للمسلمين وحدهم.

إن الخيط الجامع بين هذه الفصول كلها أن محمدًا ﷺ كان الدليل البشري الأكمل على فعل الوحي في الإنسان. ليس معنى ذلك أن ذاته دليلٌ مستقلٌّ عن الوحي، بل أن الله جعل سيرته الشريفة بيانًا حيًّا لما يصنعه الوحي حين يتلقاه أعظم قلب، وأطهر نفس، وأكمل عبد. فالقرآن كلام الله المنزل، والنبي ﷺ هو أكمل من امتثل هذا القرآن، وبه عرف الناس كيف يصير الوحي حياة: صلاةً، وعدلاً، ورحمةً، وصبراً، وجهاداً، وبيتاً، وأمةً، وخلقاً، وحكمًا، وسجوداً.

وهنا يظهر معنى عنوان هذه الخاتمة: **حين صار الإنسان دليلًا على الوحي.** فالمراد ليس أن الإنسان حاكمٌ على الوحي، ولا أن البشر يقيسون الوحي بمقاييسهم، حاشا وكلا، بل المراد أن الله جعل في حياة رسوله ﷺ تجسيدًا عمليًا لهداية الوحي، حتى يرى الناس أن الوحي ليس نصًّا معلقًا بعيدًا عن الحياة، بل نورٌ إذا دخل الإنسان أعاد بناءه، وإذا دخل المجتمع أعاد ترتيب قيمه، وإذا دخل القوة طهرها، وإذا دخل الرحمة هداها، وإذا دخل البيت جمّله، وإذا دخل السياسة جعلها أمانة، وإذا دخل القلب جعله عبدًا لله.

إن النبي ﷺ بهذا المعنى ليس فقط مبلِّغًا عن الله، مع أن البلاغ أصل مقامه، بل هو أيضًا الأسوة التي يرى فيها المؤمن كيف يُعاش ما بُلِّغ. فقد بُلِّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك. ومن الظلم لهديه أن نحوله إلى مديحٍ لفظيٍّ دون اتباع، أو إلى ذكرى سنويةٍ دون حياة، أو إلى مادةٍ خطابيةٍ دون تزكية، أو إلى شعارٍ عاطفيٍّ دون طاعة. إن حقه علينا أعظم من أن نبكي عند ذكره ثم لا نتغير، وأشرف من أن نمدحه ثم لا نقنط، وأعظم من أن نكثر الصلاة عليه بالسنتنا ثم لا تظهر آثار هديه في أخلاقنا.

ولذلك فإن الخاتمة الحقيقية لأي كتابٍ عنه ﷺ لا ينبغي أن تكون آخر صفحة، بل أول مراجعةٍ للنفس.

هل ازدادت محبتنا له؟

هل صار توقيرنا له أصفى؟

هل فهمنا أن محبته ليست غلوًا، بل اتباع؟

هل رأينا في رحمته ميزانًا لرحمتنا؟

هل رأينا في قوته ميزانًا لقوتنا؟

هل رأينا في بيته ميزانًا لبيوتنا؟

هل رأينا في تواضعه علاجًا لكبرنا؟

هل رأينا في إخلاصه فضحًا لعبادة الصورة والذكر والناس في داخلنا؟

هل رأينا في بنائه للإنسان دعوةً إلى أن نسمح للوحي أن يبيننا نحن أيضًا؟

إن الكتابة عنه ﷺ إذا لم تثمر حياءً من مخالفته فهي ناقصة. وإذا لم تثمر شوقًا إلى اتباعه فهي باردة. وإذا لم تثمر تعظيمًا للوحي الذي جاء به فهي سطحية.

وإذا لم تثمر مزيداً من التوحيد فهي غير مأمونة. فالنبي ﷺ لا يُكتب عنه ليصير موضوعاً جمالياً في البلاغة، بل ليصير حبه حياةً في القلب، واتباعه أثراً في العمل، وسنته ميزاناً في الفهم، وسيرته مرآةً ترد الإنسان إلى الله.

ومن هنا يجب أن نحذر من آفتين متقابلتين في التعامل معه ﷺ: آفة الجفاء، وآفة الغلو.

فالجفاء أن يُذكر النبي ﷺ ببرود، وأن تُقرأ سنته كأنها مادة تاريخية، وأن يُعامل مع مقامه العظيم بلا توقير، وأن يُختزل في عبقرية بشرية مجردة، أو إصلاح اجتماعي منفصل عن النبوة.

والغلو أن يُرفع فوق مقام العبودية، أو يُنسب إليه ما لا يليق إلا بالله، أو تتحول المحبة إلى تجاوز لما جاء به هو نفسه من التوحيد الخالص. والطريق الحق بينهما: محبة عظيمة، وتوقير جليل، واتباع صادق، وتوحيد صافٍ، ومعرفة أنه ﷺ عبد الله ورسوله، أشرف الخلق، وخاتم النبيين، لا يُعبد، بل يُطاع ويُتبع ويُحب ويُوقر كما أمر الله.

إن من أعظم الوفاء له ﷺ أن نعيد بناء علاقتنا به من داخل الوحي لا من داخل العاطفة المنفلتة ولا البرود الثقافي. نحبه لأن الله أمر بحبه، ونطيعه لأن طاعته من طاعة الله، ونوقره لأن الله رفع مقامه، ونصلي عليه لأن الله أمر المؤمنين بذلك، ونتبع سنته لأنها الهدي، وندافع عنه بالحق والعلم والخلق، ونعرض أنفسنا على سيرته لا لنجلد ذواتنا باليأس، بل لنزكيها بالرجاء والعمل.

وإذا كان هذا الكتاب قد اختار عبارة: الإنسان الذي لم تفسده العظمة، فليس المراد بها مجرد وصفٍ أدبيٍّ جميل، بل تقريرٌ لمعنى مركزي في السيرة: أن كل ما يفسد غيره لم يفسده ﷺ، بل ظهر فيه على أكمل وجه. النبوة لم تجعله متعالياً، بل عبداً مبلّغاً. النصر لم يجعله منتقماً، بل شاكراً عافياً. القوة لم تجعله باطشاً، بل عادلاً رحيماً. محبة الناس لم تجعله طالباً للغلو، بل حافظاً للتوحيد. القيادة لم تجعله مستبدّاً، بل راعياً أميناً. البيت لم يكشف فيه قسوة خفية، بل جمالاً نفسياً أصفى. الخصومة لم تخرجه عن العدل، بل أظهرت طهارته. التاريخ لم يطوه، بل صار أثره أوسع من التاريخ.

وهذه هي العظمة التي لا تشبه عظمة الملوك ولا الفاتحين ولا الفلاسفة ولا الشعراء ولا المصلحين الكبار. هؤلاء قد يتركون آثاراً عظيمة، لكن آثارهم تبقى في حدود البشر؛ فيها النقص، وفيها أثر البيئة، وفيها ما يشيخ، وفيها ما يُراجع، وفيها ما ينطفئ. أما النبي ﷺ فهدية باقية لأنه من الوحي، وأثره باقٍ لأن الله رفع ذكره، ومحبه باقية لأن الإيمان لا ينفك عنها، وسنته باقية لأنها الطريق العملي إلى امتثال ما جاء به.

إننا حين نقول إن محمداً ﷺ كمال الإنسانية، لا نعني كمالاً مستقلاً عن الله، ولا كمالاً ذاتياً يخرج عن معنى العبودية، بل نعني أنه أكمل الخلق عبوديةً لله، وأشرفهم مقاماً عنده، وأصفاهم نفساً، وأعظمهم خلقاً، وأتمهم امتثالاً للوحي. فكل كمالٍ فيه هو من اصطفاء الله وتربيته ووحيه، وكل عظمة فيه

تدل على الله، لا تحجب عنه. ومن لم يفهم هذا المعنى ربما مدح النبي ﷺ بلسانه، ثم أخطأ الطريق إلى حقيقة مقامه.

ومن هنا فإن أعظم مدخل للكتابة عنه ﷺ هو الأدب. الأدب قبل البلاغة، والأدب قبل التحليل، والأدب قبل التفلسف، والأدب قبل الاستنباط. والأدب هنا ليس ضعف التفكير، بل ضبطه؛ وليس تقليل الجراءة، بل تطهيرها؛ وليس منع الإبداع، بل منعه من التعدي. أن نكتب عنه بقلوبٍ تعرف أنها تقترب من مقام رسول الله، فلا تتلاعب بالألفاظ، ولا تنسب إليه ما لا يثبت، ولا تجره إلى مقاييس العصر جرأً، ولا تحوله إلى رمزٍ يخدم أهواءنا، بل نجعل أنفسنا نحن في خدمته وهدية.

والكتابة الجديدة عنه لا تكون بادعاء أننا سنأتي بما لم يعرفه الأولون من أصل المقام، بل بأن نعيد فتح نوافذ المعنى على حاجات زماننا دون أن نخرج عن أصول الوحي. نقرأ قوته في زمن عبد القوة. نقرأ رحمته في زمن قست فيه القلوب أو مالت إلى رحمةٍ بلا حق. نقرأ بيته في زمن تفككت فيه البيوت. نقرأ تواضعه في زمن تضخمت فيه الذات. نقرأ بناءه للإنسان من الداخل في زمن انشغل بالقشرة والصورة. نقرأ أثره الحي في زمن ظن أن السرعة تغني عن الهداية. هكذا يكون التجديد: لا اختراع دينٍ جديد، بل إحياء دلالة الهدي النبوي في أمراضٍ جديدة.

إن الأمة اليوم لا تحتاج إلى كتبٍ تمدح النبي ﷺ فقط، بل تحتاج إلى كتبٍ تجعل مدحه باباً لإحياء سنته. لا تحتاج إلى عاطفةٍ موسميةٍ تنطفئ بانتهاء المناسبة، بل إلى محبةٍ تعيد ترتيب الحياة. لا تحتاج إلى دفاعٍ انفعاليٍّ عنه

فقط، بل إلى دفاعٍ عميقٍ يكون بالعلم والخلق والاتباع وإظهار جمال هديه. لا تحتاج إلى أن تقول للعالم إنه عظيم فحسب، بل أن تجعل العالم يرى في أتباعه شيئاً من أثر تلك العظمة: صدقاً، وعدلاً، ورحمةً، وأمانةً، وحياءً، وقوةً مؤدبةً، وبيئاً نظيفاً من الظلم، وقلماً لا يخون الحق، وقلباً لا يعبد غير الله.

ومن قسوة المفارقة أن يكون النبي ﷺ قد وقره بعض أعدائه لصدقه وأمانته، ثم لا يرى بعض الناس في أتباعه ما يدل على صدق الانتساب. وهذا لا يقدر في مقامه وحاشاه، بل يقدر فينا نحن. فمن انتسب إلى نبي الصدق ثم كذب، وإلى نبي الرحمة ثم قسا، وإلى نبي العدل ثم ظلم، وإلى نبي الأمانة ثم خان، وإلى نبي التواضع ثم تكبر، فقد جعل انتسابه دعوى تحتاج إلى توبة. إن من حق النبي ﷺ على أمته أن لا تشوه هديه بأفعالها، وأن لا تجعل الإسلام في عيون الناس صورةً مناقضةً لما كان عليه رسول الإسلام ﷺ.

وليس معنى ذلك أن الأمة لا تخطئ، فالبشر يخطئون، ولكن المعنى أن يكون في الأمة رجوعٌ دائمٌ إلى الميزان، وحياءٌ من المخالفة، وصدقٌ في التوبة، وعلمٌ يميز بين الدين وتقدير المتدينين. إن السيرة لا تُقرأ لنزع الكمال لأنفسنا، بل لنرى نقصنا ونعمل على تزكيته. وكلما رأينا البون بيننا وبينه ﷺ، ينبغي أن يزيدنا ذلك حباً واجتهاداً، لا يأساً ولا ادعاء. فنحن لا نطالب أن نبلغ مقامه، فهذا محال، ولكن نطالب أن نتبعه بصدقٍ على قدر الاستطاعة.

وفي هذا المعنى تكون السيرة رحمةً حتى وهي تكشف نقصنا. فهي لا تفضحنا لتقنطنا، بل لتدلنا على الطريق. تقول للغاضب: انظر كيف كان حلمه. وتقول للقوي: انظر كيف كان عدله. وتقول للكاتب: انظر كيف كان صدقه. وتقول

للزوج: انظر كيف كان جمال عشرته. وتقول للقائد: انظر كيف كانت أمانته.  
وتقول للعابد: انظر كيف كان سجوده. وتقول للمذنب: باب التوبة مفتوح.  
وتقول للمغرور: العظمة الحقّة سجود. وتقول للمحب: برهان حبك اتباع.

وهكذا لا تكون الخاتمة نهايةً، بل بداية عهد.

عهدٍ مع القلب أن يحب بصدق.

وعهدٍ مع اللسان أن يصلي عليه بأدب.

وعهدٍ مع العقل أن يتعلم هديه بإنصاف.

وعهدٍ مع الجوارح أن تتبعه بقدر الطاقة.

وعهدٍ مع القلم أن لا يكتب عنه إلا وهو مستحضر جلال المقام.

وعهدٍ مع البيت أن يجعل من شمائله معيارًا.

وعهدٍ مع القوة أن لا تخرج عن العدل.

وعهدٍ مع الرحمة أن لا تفارق الحق.

وعهدٍ مع الأمة أن تعود إلى نبيها لا عودة شعارات، بل عودة بناء.

إن محمدًا ﷺ ليس ماضيًا نفاخر به فقط، بل مستقبلًا نهتدي إليه. ليس بمعنى أنه يأتي بعدنا، فهو قد مضى إلى الرفيق الأعلى، ولكن بمعنى أن هديه هو الطريق الذي لا مستقبل صالحًا للأمة بدونه. كل مشروع نهضة لا يمر من باب الإنسان الذي بناه الوحي مشروعٌ هشّ. وكل قوة لا تتعلم من قوته ستفسد أو تضعف. وكل رحمة لا تتعلم من رحمته ستتميع أو تعمى. وكل فكر لا يتأدب بالوحي الذي جاء به سيّتيه ولو لمع. وكل كتابة عن الإنسان لا تعرف الإنسان كما عرفه الوحي ستظل ناقصةً مهما زخرفت عبارتها.

لقد صار ﷺ ميزانًا لا لأننا جعلناه كذلك، بل لأن الله جعله أسوة. والأسوة ليست صورة تُعلّق في الوجدان، بل طريقٌ يُمشى. ومن لم يمشِ خلفه بقي واقفًا عند الإعجاب. ومن سار خلفه عرف أن الطريق طويل، لكنه مضى؛ وأن النفس ضعيفة، لكن الله يعين من صدق؛ وأن المحبة ليست كلمة، لكنها وقودٌ للطاعة؛ وأن الصلاة عليه ليست عادة، بل صلةً وجدانيةً وإيمانيةً ينبغي أن تثمر في السلوك.

وفي النهاية، لا نملك إلا أن نقول:

السلام عليك يا رسول الله، لا سلام إحاطةً بمقامك، بل سلام محبةٍ وأدب.  
السلام عليك يا من بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وجاهدت في الله حق جهاده.

السلام عليك يا من علّمنا أن العظمة سجود، وأن الرحمة حق، وأن القوة أمانة، وأن البيت محراب أخلاق، وأن الإنسان لا يكتمل إلا إذا صار عبدًا لله.

السلام عليك يا من لم تفسدك العظمة، لأنك كنت أعظم الخلق عبوديةً لله.  
السلام عليك يا من بقي أثره حيًّا، لأن ما جئت به من عند الحي الذي لا يموت.

أما نحن، فحسبنا أن نقف على عتبة سيرتك، ونعترف بالتقصير، ونسأل الله أن يجعل محبتنا لك صادقة، وأن يرزقنا اتباعك ظاهرًا وباطنًا، وأن لا يجعل كلامنا عنك حجةً علينا، وأن يجعل الصلاة والسلام عليك حياةً في قلوبنا، لا لفظًا يمر على ألسنتنا.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، صلاةً تليق بما أمرت به من توقيره ومحبته، وتجعلنا بها أقرب إلى هديه، وأصدق في اتباعه، وأطهر في محبتنا له، وأثبت على التوحيد الذي جاء به، حتى نلقاك وأنت راضٍ عنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

وهكذا تنتهي الصفحات، ولا ينتهي المعنى.  
فالكتابة عنه ﷺ إذا انتهت في الورق، بدأت في القلب.  
ومن لم يبدأ قلبه بعد القراءة، فما قرأ حقاً.  
ومن بدأ قلبه، فقد دخل الطريق: طريق محمد ﷺ، الإنسان الذي لم تفسده العظمة، والرسول الذي دلّ البشرية على أن كمال الإنسان ليس في أن يعلو على العبودية، بل في أن يبلغ بها أعلى مقام.

**والحمد لله رب العالمين**